كتاب التوهمات

رواية

خيري عبد الجواد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

الغلاف للفنان : حلمى التونى

الاخراج الفنى : محمد المحجوب

« دعنى انال السيادة داخل هـذا الحقل لأنى اعرفه وابحرت خلال جداوله كى اصل الى مدنه لأجل هذا . لقد نلت القوة على فمى المزود بالتعـاويذ كى لا ينال المتلألئون السيطرة على ، لا تدعهم يقـدرون على » .

(من كتاب الموتى الفرعونى)



توهم احياء الموتى

(توهمت) أننى منشد ربابة ، وهو توهم طالما تمنيته واشتهيته ، أمسكت ربابتى ، آلة حكيى الحبيبة ، وبين يدى اجتمع نفر من الناس ، وأحاطوا بى كما يحيط السواد بالبياض، أو النيل بالبلاد ، وأنا جلست على دكة خشبية متربعا ، تناولت الربابة بين أصابعى فأصلحت أوتارها ، أمسكت القوس بيد ثابتة وأنشدت : أنا أول ما نبدى القول نصلى على للنبى ، نبى عربى لم بعد نوره نور ، بعد مدحى فى جمال محمد ، اصغوا لكلامى عن وجوه أخيار ، ثم أخذت وقد اصابنى الوجد أقص قصة موتاى وهم كثر ، وجوه نخرها الدود ، وعظام قد بليت منذ زمن ، وعناصر رجعت الى أصولها ، وذكرى كادت تنمحى ، وناس كأن لم تكن أنشئت من قبل ، ولا سعت على

ظهر بسيطة قط ، وكلما ذكرت اسما من الاسماء انتفضت الأرض وتشققت وانشقت عنه حيا يسعى — فسبحان محيى العظام وهى رميم — فذكرت أول ما ذكرت ، أمى وأبى ، وصار الناس يتفرجون عليها وعليه ، وكل من له نبى يصلى عليه ، وذكرت أخى الأكبر الذى رحل فى أول مسعاى فى دنيا الراحلين ، ثم ذكرت ستى وجدى لأمى ، وستى وجدى لأبى الذى لم ير أمه قط فى حياته ، فكانت هذه هى مرته الأولى التى يراها ، وذكرت أصحاب الطفولة : سعيد فرجانى الذى مات كافرا بانتحاره ، محمد عبد القادر ابن الموت الحقيقى ، ومصطفى المقدم الزهرة التى قطفت قبل أوانها ، وصار الناس يتفرجون عليهم بشحمهم ولحمهم وهم يتعجبون من ذلك الأمر ، وبينما أنا كذلك وقد تملكنى الأمر ، واستبد بى الشجن ، أصلحت من ربابتى ، وبعد المديح فى المكمل ، أخذت فى ذكر كل ما خطر على بالى من أحبائى ، قلت هى الفرصة لن تأتى مرتين ، فذكرت أول ما ذكرت أساطير الأولين من الصحابة وأولياء الله الصالحين ، ومن أبطال السير المشاهير ذكرت ، ومن الليالى ذكرت ، وذكرت ، وذكرت ، حتى اجتمع من كل ذلك الخلق الكثير كل واحد بصفته ، فكأنهم فى يوم الحشر ، ووقفوا يستمعون وينصتون لأنغام الربابة وصوتى المنغم وقد ملأه الشجن ، ولمحت فى العيون أسى ورجاء ، ولسان حالهم يقول لى : لا تتوقف أرجوك ، استمر فى غنائك كى نحيا . فانهمر

دمعي ، وتقطعت مهجتي ، واضطربت أنفاسي ، واعتدلت في وقفتي ، فأصلحت ربابتي وغيرت المقام وانشدت : من لم يرض بقضائي ، ويصبر على بلوائي ، فليرحل من تحت سمائي ، ثم أصلحت وانشدت : كل حي الى زوال وموت ، فسبحان الحي الذي لا يموت ، صاحب الملك والملكوت ، وكنت اظنني قلت ما عندي واسترحت ولكن قلبي مفعم ، وخاطري جياش ، ومالي لا أبسط حكاياتي كل البسط ، بل أدعها مغلولة بالايجاز ، وأمر مر الكرام على سبب نشأتي وأحق الناس بحسن مودتي ، فهل أمسك باللحظة وأسمع موتاي من فمي قصصهم على الرباب ؟ كان حالي ممزقا بين يأس ورجاء ، وكأن هما تزحزح عن قلبي لما طرحت سؤالي ، فقد أصلحت من ربابتي وغيرت المقام ، وقلت وقد لعلع صوتي : أنشد يابن عبد الجواد ، وعلى لسانك أنطق بفمك اسم الأب ، والأم ، والصاحب والصديق ، وانذر نفسك لموتاك الى حين ، وأبدأ بالأخبار الحزينة ، فمنها تفرعت كل الأحزان .

الأخبار الحزينة
فى موت السيدة امينة
«احدوثة عن الفقد»

« وفيها ما جرى لأمينة بنت مرشد راضى من الامور العجيبــة والحوادث المدهشــة الغريبــة التى تطرب سامعها وتلذ قارئها بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال » .

« ابن بطنى يعرف رطنى »

(مثل شعبى)

الخبـر الأول :

الموت لمـا بدأ يتنسـلل

« لا تدفنوني تحت شجرة تظللني ، الا على جبل وعيني تراكم » .

(امينة ــ الوصايا)

أمى التى جاءت منكوم الضبع حتى بولاق الدكرور بالليل فى عربة دفعأجرتها أبوها ، حين تزوجها من يكبرها من السنين بمائة الا ستين وصار أبى ـ سوف تموت الآن .

قالتـه لى بلسانهـا الذى لا ينطق عن الهوى ، ان هى الا رؤيا رأتها ليلة النصف من شعبان حين نامت على جنبهـا اليمين فرأت ما لا عين رأت ، وسمعت ما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من قبل ، اذ قالت أمى وجلسنا حواليها نسمع :

رأيت مناما ، انما المنام راعنى ، طير عقلى من دماغى وراح، رأيت سبع حمامات نزلن من العلا ، نزلن دهاشى يغلبن الرياح ، ورأيت حمامة خضراء تنزل وحدها ، وتشير لبيتى فى مسـاء وصباح ، ورأيت جمل المنايا نخ قدام بابنا ، أخذنى على ظهره المشوم وراح ، ورأيت بركة ماء مسود ماؤها ، جميع من وقع فيها أكله التمسـاح ، ورأيت نفسى داخـل قاعة مظلمـة ،

فلا لها ضبة ولا مفتاح ، هذا ما رأيت يا أولادى فى رؤيتى ، والحكم لله العلى الفتاح •

وحين سأل أمى — أبى ، ما اذا كانت قد تغطت جيدا ، أقسمت بتربة أمها أنها رأت رؤيا الموت ، وسمعت موسـيقى الموت ترن فى أذنها اليمين فما صدقت فى البداية ، لكنها سمعتها بأذنها الشمال فتأكدت •

قلت لأمى : لمـاذا يا أمى « تفولين » على نفسك بالموت ، فال الله ولا فالك يا أمى • فتقول لى التى حكت كيف أحبت وكانت بعد صغيرة ، وكيف علم بزواجها فمات حزنا ، تقول ويحمر وجهها : والله يا ولدى أحببت فزوجونى من لا أحب • وتخبىء وجهها الأحمر فى صدرى فيختبىء : الموت علينا حق يا ولدى ، وسيدنا نوح عاش من العمر ألف سنة الا خمسين ، فلما جاءه سيدنا عبد الرحمن فى عشته المعمولة بالخوص قال : يأتى من بعدك خلق يعيشون من العمر ستين ، يعمرون ويبنون ، ويسعون فى مناكبها • فتعجب من ذكر ذلك ، وقال : لو عشت ستين عاما فقط لانتظرت هذه الستين جنب قبرى •

قالت أمى وطلعت مددت على سريرنا العمدان ، وطلبت منا الخروج فخرجنا ، ثم أنها طلبت من يرتل القرآن ترتيلا فوق أذنيها ، فجاءها صـوت الشيخ عبد الباسط : اذ قال يوسف

لأبيه يا أبت . ونطرب لذلك ونقول الله يفتح عليك يا شيخ مثل ما فتحت قلوبنا بالذكر الحكيم . ولما سمعت : فصبر جميل والله المستعان . أشاحت بيديها فلم نفهم ماذا تعنى ، حتى مرت ثلاثة نهارات وثلاث ليال بالتمام والكمال قالت أمى فى نهايتها : تعالوا يا أولادى سلموا على أمكم . فجئناها وحدانا ، وكانت تقول للواحد منا : سامحنى يابنى . فيقول : سامحتك يا أمي ليوم الدين . حتى اذا ما انتهينا من السماح الأخير — وكان لأبى قالت : ربى اشرح لى صدرى بأولادى ، فقد خلقوا فى كبد . ثم أنها نظرت الينا فى حسرة ، وقالت بعد أن ذرفت عبرة : أوصيكم فكونوا عند حسن ظن أمكم بكم : أذكرونى أذكركم ، لا تدفنونى تحت شجرة تظلنى ، الا على جبل وعينى تراكم ، ليطمئن قلبى ، ثم قالت : غطونى بلحاف الجديد — وراحت فى النوم العميق الذى لم تألفه من قبل .

كيف ذهبت بامى الى حكيم الصحة ،

وكيف قال لى : ارجع بامك يا ولدى فانها تموت ؟

أقول أن أمى حين تهيأت للنوم — نامت ، وحين دخلنا عليها وجدنا صوت تنفسها عاليا جدا فخفنا أن يزعج صوت أمى ، أمى ، واقتربنا أكثر ، اقتربت أنا أكثر كثيرا فلم تدر بنا ، ولما قبلتها فى جبينها لم تضمنى الى صدرها ، ولم تلعب

بأصابعها فى شعرى ، فانزعجت ، وناديت على الأسطى خليل صاحب العربة التى تقف أمام الباب فطلع ، ورجوته أن يأخذنى وأمى الى حضرة حكيم المصحة المجـاورة فأخذنا ، وكانت أمى تنام على صـــدرى وغطيطها يرتفع ، قلت : نامى يا أمى فى هدوء فقد وصلنا لحضرة الحكيم : واحد اتنين سرجى مرجى، أنت حكيم ولا تمرجى ، أنا حكيم الصحية ، العيانة أديها حقنة ، والمسكينة أديها لقمة ، بدى أزورك يا نبى ، ياللى بلادك بعيدة ، فيها أحمد وحميدة ، حميدة ولدت ولد ، سمته عبد الصمد ، مشته على المشاية ، خطفت راسه الحداية ، حديا حد يا راس القرد ، انت ولد ولا بنت .

ضحكت أمى ضحكة طويلة جدا قالت فى نهايتهـا وهى تمسح عبرة : خيرا ، اللهم اجعله خيرا . قلت : والله يا أمى حكاياتك حلوة ، لكنى بكيت ، ووصـــلنا فحملتها والأسطى خليل الله يستره ، ناديت حضرة الحكيم فجاءنى ، ولمـا نظر الى عينيها نظر الى ، ولمـا أمســك ساعدها اليمين نظر الى ساعته وترك أمى ومشى ، وحين أمسكته من البالطو نظر وراءه، ثم أنه حدثنى هامسا : خذها معك يا ولدى ولا تتعبها فانها تموت ، أطلب الرحمة من الله . فلمـا سكت حضرة الحكيم بكيت ، ثم أننى رميت نفسى على أقرب مقعد فوقعت على أقرب أرض ، ولطمت لطمتين .

كيف استقبلنى الأحبــاب حين عودتى
وأمى بالعويل والصويت ، كذا اللطم ؟

أقول بعد الصلاة على النبى الزين : أن بكائى على الضنا الغالى ، كان بكائى على أمى لحظة موت أخى الأكبر لمــا حرمت الزاد على جوفهــا أسبوعا الا يومين ، وهى الآن فى حضــنى واذ تقترب العربة من البيت أتمنى ألا تصــل ، فتجرنا جرا ، تتنفس بصوت عال ، صــدرها يعلو ويهبط ، كلمتهــا لكنها ما كلستنى ، قال الأسطى خليل : كن رجلا يا جمال • فلم أعد أبكى ، لكنى قبلتها فى خدها اليمين وكان بعيدا عن خــدها الشمال ، شعرت بدفئه فنزلت دموعى على خد أمى دون حس ولا خبر ، لم يرنى الأسطى خليل فتركتها تسيل •

وصلنا ، وكان شارعنا ملآن بالناس ، من الأحباب صنف ، ومن الأعداء صنفين ، استقبلونا بالصــوات والعويل حتى باب البيت ، حملت أمى فوق كتفى فوضعوا لحــاف أمى الجديد على الأرض ، أنمتها برفق ووقفت فوق رأسها أشن وأبكى ، فتحت أمى عينيها نصف فتحــة أو نصفين ، نظرت الى دون الخلق ، لكنهما أغلقتا قبل أن تتمليانى عينا أمى فتحيرت من أمرها وتعجبت ، قلت : لا زالت الروح فيها ، قد تصحو فى أية لحظة ، قد تعود لزمن الرمح الذى ولى وما عاد يجىء • تحلقوا

حولها ، وجعلوا من بين أيديهم سـدا ، ومن خلفهم ، فغشى على ولم أعد أبصر أمى .

لما أفقت ، سمعت أحباب أمى ينادون على أمى أن قومى يا حبيبتى ، وأن قومى يا وردة فى جنينة قطفوكى مبدرين يا عين أمك . انتظرت أن تقوم ، هى التى قالت : لا أطلب من ربى الا ثلاث : يوم وداع ، ويوم نزاع ، ويوم أقابل ربا اسـمه الكريم . لكنها لم تقم ، فأيقنت أنها تأهبت للرحيل الطويل .

الخبـر الثـانى :

العودة الى كوم الضبع

« وفى كوم الضبع رايت ما لا عين رات ، وسمعت
ما لا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر قط » .

(امينة ــ الحكايات)

من أقوال « الجدة » الخضرة :

أحدثكم عن أمى ، وأم أمى ، وآخرين ، وهو حـديث متواتر خبرنا صحته ، أنهم قالوا فى الحكمة من وجوب الموت فى كوم الضبع : من كوم الضبع خرجتم الى الدنيا لتعمروا البنادر ، وتنتشروا فى أرض الله الواسعة ، تنجبون من خلق الله ما يسد عين الشـمس ، واليها عودتكم حين يكون العمر قد باتت أواخره ، وحين يغيب الثريا والميزان ، ولمـا يتسرطن السرطان ، ويحمل الحمل وحشة الليل فيلين سواده ، وحين تطلب الأبراج الأمان ، وتضرب الجوزاء بشروق الفجر فتنصدع كالسـنديان ، واذ تحصـد السنبلة بمنـاجل النور جيوش الظـلام ، وتميل كفـة الميزان ، ويقع الحوت ويظهر عليـه الخسران ، واذ يلدغ العقرب الأسد ، واذ يجرى على الجدى من الثور ما يهد كواسر العقبان ، واذ يتزحزح زحل عن موضعه وتضعف هيبته ، واذ يباع المشترى بأبخس الأثمان ، واذ يطلب الجسد مكان المنشأ والمختبر، وتطلب الروح الأمان فى غيطان

الصبا والنشأة الأولى ، حيث الجذر ما يزال ، وفيها يلقاكم مولانا « الضبعى » راكبا البراق ، وحوله جنود لم تروها ، حيث يدثركم بعباءته المنسوجة من ماء البحر ، وحيث يسقيكم شربة لا تظمأون بعدها أبدا ، ويهون عليكم لحظات الفراق ، وهو صعب ، ان العودة آتيـة لا ريب فيها ، تكاد تخفى عن أعينكم ، فاذكروا كوم الضبع تذكركم ، ومن أتاها هرولة حرمت جسده على دود الأرض ، وحرمت الشجاع الأقرع أن يمسسه بقرح ــ هـذه وصـيتى فاستوصـوا ولا تهنوا ولا تحزنوا .

بداية العودة :

قلت لأمى النائمة فوق اللحاف الجديد على الأرض :

أمى يا أمى ، لمـاذا تنامين هكذا ، قومى حتى لا يتفرج علينا خلق الله من الأحباب والأعداء . لكن أمى عاندتنى ، هى التى لم تقل لى أف من قبل ولا نهرتنى ، وصاحبتنى فى الدنيا معروفا . كان صـوت تنفسها يسمع على مسيرة يوم ، ودخلت مرحلة السكون الموحش ، ولم تسمعنى فخرجت ، رأيت الأحباب والأعداء فى اجتمـاع يلطمون الخد والخد ، ثم الصـدر . قلت : لمـاذا يا أحباب أمى تعذبون أمى ، ألم تنهكم عن لطم الخدود وشق الجيوب يوم فاجأها ملاك الموت بقطف ورقة أعز الولد ــ ولمـا جاء الأسطى خليل بالعربة وقـال هيا ،

حملتها على كتفى فأطاعتنى ، وكان جسمها ساخنا فتدفأت ، ثم أننا ركبنا العربة ووقف أحباب أمى لوداعها فى الشارع الذى عاشت فيه من السنين ثلاثين مما تعدون ، وخرجت منه بيضاء من غير سوء ، استقبلنا الطريق الصحيح ، وبدأنا رحلة الشتاء والصيف .

الآن ، والساعة تقترب من الثانية صباحا ، الأحوال هادئة تماما ، النفس يتردد فى صدر أمى دون زيادة أو نقصان ، العربة يسوقها الأسطى خليل ، أخى جالس بجانبه ، أمى نائمة على صدرى ، أختى بجانبها من الناحية الأخرى تضع كف يدها اليمين على عينيها وتبكى فى صمت ، وأنا أربت فوق خد أمى ، استقبلنا أول لافتة على جانب الطريق : القاهرة ــ الباجور ، ٦٠ كم .

الجو حار والأشجار مرتخية ، ضوء شاحب من قمر الموت يضيع فى العتمة والحزن ، عما قريب سوف نصل كوم الضبع ، تماما بعد ألف شجرة تعرفها أمى ، وتكون السواقى دائرة ، كذا يكون الشيخ الضبعى خرج من مقامه فى البحر ، فى انتظار العائدة ، يحمل بردته المنسوجة من ماء البحر ، ومن حوله جنود لم يرها أحد من قبل .

كوم الضبع ـ ٥٠ كم .

الآن ، لا صوت يعلو فوق صوت أمى ، والعيون تعبت من البص فى العتمة ، أخذت أحملق فيها ، هادئة تماما ، صدرها يعلو ويهبط ، احك لنا يا أم ـ والزمان ، زمن شتاء حيث الليل أطول من النهار ، والمكان : بيتنا الحجرتين وعفشة مياة وصالة ، والأحوال : حال من ينتظرون عشاء تأخر كثيرا ، واحك لنا يا أم ـ أحكى لكم يا نن عين أمكم ، ولما قابلها ، وكان الشرر يطق من عينيها والأفاعى تلعب على شفتيها ، قال لها السلام عليك أمنا الغولة . فلما قرأ عليها السلام نظرت اليه فى حسرة ، ونطقت بعد أن ذرفت عبرة : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك . ثم أنها أرضعته من لبنها : شربت من بزى اليمين صرت كولدى أمين ، شربت من بزى الشمال صرت كما ولدى هلال .

كوم الضبع ـ ٣٠ كم .

خرجت من كوم الضبع وأنا بنت بنوت وكان صدرى لم يطلع بعد ، فى بولاق الدكرور خدمت على ثمانية أطفال وأب ، وصرت أعامل كما تعامل امرأة أب ، ذقت من المرار مقدارين حتى جئتم الى ، الحق أقول لكم يا عيال أمينة أننى هدنى التعب والمرض ، وقد صرت مريضة بداء « الكلى » حين يكون وجودها مثل عدمها ، وأمراض أخرى من الحزن على أيام

ولت وما عادت تجىء ، وهـذا أوان الفراق يبدو • بعد الشر عنك يا أمى — يجعل يومنا قبل يومك •

كوم الضبع — ١٥ كم •

قال طبيب الأطبة : ان يستطع أحدكم التبرع بكلية ، قد تنجو أمكم • زعقت : أنا يا أمى ولد البكر ، وأنا يا أم أحق من اخوتى ، وأنا آخذ منى لأعطيك • قلبى لا يطاوعنى يا نن عين أمك ، وهل أخرب فيك لأعمرنى ، أيامك يا ولدى آتية ، أما أنا فعائدة الى حضن أمى وأم أمى الأرض ، عائدة يا ولدى الى كوم الضبع ، ففيها نشأنا النشأة الأولى ، وفيها تفرعت سيقاننا ، واليها نعود ، عليكم بحفظ وصايا أمنا الخضرة فهى الجذر • سمعت بكاء أختى فنهرتها حتى لا تزعج أمى ، وكان أخى يتحدث الى الأسطى خليل كيف ان الرؤية غير واضحة فى الليل ، كنا نقف خلف رجال القرية نعمر البنادق أيام الاحتلال ، نقطع السكة الحديد ، نغنى : يا عزيز يا عزيز ، كبة تاخد الانجليز • حين طلع علينا مولانا الضبعى راكبا البراق طائرا فى سماء الله الواسعة متدثرا بعباءته ماسكا سيفه « الظامى » حاربنا خلفه حتى كسرنا الأعداء ، وخلفه جنود بعرض المشرق والمغرب يسمع صليل سيوفهم على مسيرة خمسمائة عام ، والى مقامه فى البحر عاد — هذه يا ولدى هى كوم الضبع •

كوم الضبع – ٥ كم .

أيها الاخوة المؤمنون ، نبدأ أولى شعائر الفجر من مسجد مولانا الامام الحسين ، يتلو علينا القارىء الشيخ « عبد الباسط عبد الصمد » ما تيسر من الذكر الحكيم .

أمي الآن هادئـة تماما ، لا تنطق عن الهوى ، ان هو الا نفس يتردد يخرج وهنا على وهن ، بعض التقلصات الخفيفة أسفل الشفة السفلى ، لكنها هادئة ، ابتسامتها ناضرة ، الى ربها ناظرة ، حين بلغت أمي التراقى ، وقيل من راق ، وظنت أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق ، قالت اليوم الى ربى المساق. ثم قـالت أولى لى فأولى ، ثم أولى لى فأولى ، أن أصـدق وأزكى . وقالت هـذا جلبابى تصدقوا به على روحى وادعوا لى ، عمل ابن آدم يرفع الا من ثلاث : منها ادعوا لى يا أولادى، ومنها لا تنسوا أمكم ، ومنها زورونى تمنعوا عنى وحشـة القبر . أبكى ، وأختى تبكى ، أخى لا يبكى ، الأسطى خليل يشق الظلام بالعربة السوداء ، الضوء الشاحب الآتى من أعمدة النور يموت فى العتمة ، قال الأسطى خليل : نحمد ربنا ، الطريق خال وأحد لم يوقفنا من عساكر المرور . رد أخى : لكنهـا لم تزل فيها الروح . كان صـوت الراديو يسرى فى سـكون العربة ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان .

من سنواتى المعدودات لم شفت يوما الا وأسود من قرون الخروب ، أتيت من كوم الضبع يا مولاى كما خلقتنى ، وبى من التصاوير عن البنادر الكثير ، فى بولاق الدكرور عشت على الحلاوة الطحينية والعيش « السوقى » ولم أزهق ، أكلت الدقيق « السن » معجونا فى الزيت ، أأشكر أم أكفر بنعمة الله ، حزمت وسطى بحزام « الألشين » وحملت وراء أبيكم الطوب والرمل كما الأنفار ، وكنت أناوله حتى علا المدماك فوق المدماك وبنينا ما يستر ولا يفضح ، وصرت حاملا ، والحمل مصيبة الغلابة ، وكانوا يتفرجون على حين أمسى حاملة ما يهد الجبال ، وحين أصبح على لحم بطنى الا ما يعصمنى من الماء ، لكنهم اخوتكم على كل حال ، من صلب أبيكم المعلم جاءوا بحكمة الله . خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان .

أوصيكم فاستوصوا بمحبة أبناء البطن الواحدة ، اعتصموا بحبل الاخوة ولا تفرقوا ، وأذكروا أمكم وصلوا الرحم ، اذ كنتم نطفا فألف بينكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد موت أمهم ، وما أنا الا بشر جاء أوان مواته ، أفان مت انقلبتم على أعقابكم . مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان .

قال الأسطى خليل : لا تذكر علينا ذنوب الأولين ، لتتقدمنا مراحمك سريعا لأننا قد تذللنا جدا ، اعنا يا الهخلاصنا من

أجل مجد أسمك ، ونجنا وأغفر لخطايانا من أجل اسمك • فبأى آلاء ربكما تكذبان • مرحبـا بالزائرين ـ الباجور ـ محافظة المنوفية • تهادت العربة لحظة اجتياز كشك المرور ، خرج شرطى يحمل كشافا فى يده ، نظر الينا وأشار أن سيروا بالسلامة ، فرقع بشفتيه : يحيى العظـام وهى رميم • قلت : أنى يحيى الله أمى بعد موتها ، لكنى تأسفت فى قلبى • فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان • قال أخى : خـالى يخشى دائما موت الفجأة ، ومن دعائه : اللهم أكفنى شر القضاء المستعجل ، ومنه أيضـا اللهم لا أسألك رد القضـاء ولكن أسألك اللطف فيه • سوف يصابون بالذعر من قدومنا الآن • قال الأسطى خليل : أليست لكم مدافن فى القاهرة ؟ • قالت أمى : لنا مدافن كثيرة ، لكنها العادة أن نكدح الى ربنا كدحا فنلاقيه وسط الأحبة والأهل فى كوم الضبع ، تشهد علينـا ساعتهـا سنوات الصـبا والرمح ، ويشـهد علينـا مولانـا أبو الفتوحات عبد الله الضبعى ، لحظة أتانى فى المنام ، شممت رائحته على بعد مسيرة يوم ، ورأيت نوره يسبق هيبته فعلمت أنه هو ، وأنه ما جاء الا لسبب ، وأن سبب اتيانه ما هو بالهين ، كلمنى دون أن ينطق ، ورنت كلماته فى وجودى البدنى فارتبكت واهتز فرعى ، وكاد صـوته يدكنى دكا ، ويزلزلنى زلزلة ، فلما رآنى لا أعى من حقيقة وجودى الدنيوى شيئا ضمنى الى حيز وجوده فكان بردا وسلاما على قلبى العليل ، وألقى فى

مسامعى فأنصتت جوارحى : سلام عليك أمينة يوم ولدت ويوم تموتين ويوم تبعثين حية • فرددت عليه بمثل ما قال ويزيد •

قلت : أرنى أنظر اليك • قال : لن ترينى ، ولكن أنظرى الى شفتى فان تحركتا فسوف ترينى •

فلما نظرت اليه خررت صعقا ، ولما أفقت تأسفت فى قلبى ، وعلمت أن رؤيته محال ، وخفت غضبه منى ، قلت : مولاى ، اجعل لى آية • قال : آيتك الا تكلمى الناس ثلاثة أيام الا رمزا • وقال : مع السلامة يا أمينة • ثم قال : وهذا فراق بينى وبينك • فعلمت أن زمن الموات آت لا ريب فيه ، وأن هذا أوان قدومه ، فتأهبت للرحلة التى قطعتها أمى ، وأم أمى ، وأبى من قبل •

قلت : ولكن هذا السفر يزعج أمى فى لحظات الموت فيها أقرب اليها من حبل الوريد •

وقلت : لكنها كانت تحب كوم الضبع ، ثم قلت : وكانت تعشق البحر والترعة ، وشجر التوت الأسود الحبشى وقلت أيضا : هل أتاكم حديث أمى لحظة يفجأها حنين قلبها بنبأ الذهاب لكوم الضبع ، تنجلى كما العروس ليلة الجلوة ، وجهها ليلتئذ أبيض من غير سوء ، تتعجل الذهاب فتصحو مع نجمة الفجر تجهز « السبت » الكبير من الليل ، تستحم وتمشط شعرها السارح على ظهرها فيكون ضفائر ، ويكون كما ذيل الحصان ،

أكوى جلباب السفر الأسمر القطيفة والطرحة الحرير الطبيعى ، لا ترتديهما الا على سفر ، تعبىء « السبت » بالأرز والسكر والعدس ، أخرج لوداعها فى الصباح حاملا « السبت » ، تشترى بعض الفاكهة ، تعطينى واحدة من كل صنف ، تضحك فى وجهى : هم يفرحون لمجيىء ، خذ بالك من نفسك واخوتك . أقول لا تتأخرى يا أم . تدمع عيناى ، تخبط بكف يدها على صدرها : هل يبكى الرجال يا جمال ، يا وكستى فى أول بطنى ، كأنك لم تصبح ولدا طويلا بعد ، أختك الصغيرة لم تبك . لا تتأخرى يا أم ، تقبلنى ، أجرى الى العربة فأحجز مكانا لها ، تجلس ، تهم العربة بالسير تنظر الى : هل معك نقود ؟ أهز رأسى بنعم . تمد يدها الى صدرها ، تخرج « البك » ، تفتحه وتخرج نقودا ، خذ ، لا .. معى ، خذ ، أمد يدى وأضع النقود فى جيبى ، سأغيب يوما أو بعض يوم . سلمى لى على خالى ، وجدى ، وكل الناس ، أنزل ، أقف على المحطة ، تطل من الشباك ، ألوح بيدى وتلوح بيدها ، تسير العربة فأظل ناظرا للشباك ، مع السلامة ، مع السلامة ، حاسب على نفسك . عند رجوعى البيت ينظرون الى ، يضحكون ، يأكلون ولا آكل ، هل تصوم حتى ترجع أمك ، طفل كبير ، ابن أمك ، أتنحى ركنا وأقرأ « روكامبول » ، وحين يهم بقتل أندريا أتذكر أمى فأبكى ، متى تعودين يا أم ، فان لك وحشة كبيرة ، كأنك تسافرين فى زمن بعيد . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

كوم الضبع ــ هدىء السرعة :

الآن ، وكوم الضبع راقدة فى حضن البحر والترعة ، جامع جدى الكبير فى أول الطريق ، المقابر على شماله ، البيوت الطين ، هدأت العربة ووقفت أمام بيت جدى ، قال أخى سوف أذهب لأخبرهم بقدومنا ، كنت أبكى ، وأخذت يدى تتحسس ضفائر أمى ، ضممتها الى صدرى ، قبلتها فى عينيها ، كانتا مغمضتين ، سمعت صواتا عن بعد ، جاء أخى وخالى وامرأة خالى وعيال خالى ، أخذوا يلطمون ، لطم خالى زوجته على فمها وقال اخرسى ، فخرست الى حين ، وقال اسكتوا كلكم ، لا أسمع نفسا واحدا ، قال خالى وأخذ يضرب صدره : حمد لله على السلامة ياختى . حملناها الى الداخل ، وضعناها فى المندرة الكبيرة ، قالت أمى : نفسى أموت كما مات الأحبة أمى وأبى على سرير واحد .

صعد خالى بجانبها على السرير ، وضع كف يده على فم أمى وأنفها ، لا زالت تتنفس ، الروح لم تطلع بعد ، قبلها فى جبينها وكنا حواليها ، يا حبيبتى ، أنام نومتك ياختى ، كانوا يصرخون ، امتلأ البيت بالناس والصوات ، صرخ خالى لا أحد يصوت ، الروح لم تطلع بعد . سكتوا فجأة ونظروا الى أمى ، وضع خالى كف يده على فمها ، نظر اليها ونظرت اليها ، أمى كانت هادئة ، قبلها خالى فى جبينها وأسبل عينيها ،

أمى كانت تبتسم لى فابتسمت لها أنا أيضـا ، سحب خـالى اللحاف فغطى كل أمى ، أمى أخفت وجهها فى اللحاف ونامت ، نزل خالى من جنب أمى ، جلس على حصـير الأرض وقـال خلاص ، ثم وقف وضرب كفا بكف وقال خلاص ، ثم جلس وقال خلاص ياختى ، العوض على الله ، وبدأ يلطم خديه .

الخبـر الثـالث :

الجنـــازة

« وفيها ما حدث بالتمام والكمال ، والحمد لله على كل حـال » .

(الـراوى)

يا أيها الناس ، اذ أقص عليكم خبر موت أمى ، فاستمعوا وأنصتوا لعلكم تبلغون من الحزن ما أنا بالغه •

اذ لا يعلم أحدكم كم من السنوات رمحت فى غيطـان البرسيم ، كلا لا تعلمون ، ثم كلا لا تعلمون كم من السنوات جلست على حافـة البحر ، فطلعت لها امرأة ذات ثدى واحد وعين فى منتصف الرأس تملأ البلاص ونادتها أن تعالى يا أمينة لحضن أمك ــ وكانت تشبهها ، ونادتها أن ضعى البلاص على رأسى يا ضناى ، فخافت وجرت تنتفض الى الدار ، واختبأت فى حضن أمها زينب وقالت زملينى يا أم • وكم مرة أغراهـا المـاء فخلعت ملابسها ورمت بدنها الصغير فى حضن النهر ، الذى يعلم ذلك واحد فقط لمحها ذات مرة تستحم ، ولمحها ذات يوم ترمح رمح أنثى النعـام فى السـهول وهاله جمالها حين التفتت وراءها فتربص بها ، وصـار يتعقبها ، ولمـا أحست

بانفلات أنفاسها ، وانحلال عضـلات رجليها ، كان قد تحول الى ريح دخلت أول ما دخلت الى صـدرها الصغير فتكور ، وانتفض لها ثديان يطلان من ثنايا قميصها الصـغير فانفتق ، ونظرت رأت نفسها كما فتيات البنادر اللاتى تطل أثداؤهن من غير حشمة ، فأحمر وجهها الأبيض الشارب حليب الشمس ، واخضرت عيناها بلون البرسيم ، واحمرت شفتاها بلون ثمار الخوخ ، وسار يمشى فى بدنها فيرسمه رسما يسر الناظرين ، ثم كر راجعا الى وجهها فكوره وختمه عند خدها وأسـفل ذقنها ، حين فعل ذلك وقف ينظر اليها فأعجبه رسم يده ، ثم أنه رجع الى النهر كما جاء منه ، ولمـا عادت اليه فرح كثيرا جدا ، وضمهـا فى عباءته المـاء ، وأمدها بألف من أتباعه ازدادوا مائتين ، زفوها وهم يحملونها حتى باب المستقر ، ولم ينس أن يتلو عليها ما تيسر من حكاياته التى تحبها .

جفت الأقلام وطويت الصحف ، وكان نهار ، واذا الأرض يضج رملها وحصاها ، كذا ترابها ، واذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت ، واذا السماء كشطت ، واذا البحـار فجرت ، واذا يذهب خالى الى الباجور فيعود بالكفن الغالى والقطن وماء الورد ، واذا يذهب أخى فيعود بشـهادة الموت

الخضراء ، واذا تجىء المغسلة والنساء ويبدأن فى تجهيز أمى ، واذا تخرج أختى وترانى فتهز جزعى ولا تساقط من عينى دمعة واحدة ، وتقول لى : ابك . وأقول : ما أنا بباك . ابك . ما أنا بباك . ابك لأجل أمك التى ما عاد ينادى عليها أحد . فأبكى ، وأقف تحت شباك ترقد خلفه أمى ، أسمع النسـوة يرددن : يا وردة فى جنينة ياختى ، أخى الذى يحرس جو مصر يجىء بملابس الجيش والناس يسندونه ، لم يقل له أحد أن أمك تعيش أنت ، لكنه رأى رؤية عجيبة أثناء الخدمة « شنجى » تعجب لها الحاضرون ، وجاء يبكى ، ياوردة فى جنينة قطفوكى مبدرين ياختى ، قالت أمى : جمال يا ولدى ، وجمال يا ضناى ، لا تجعل من يقف على غسـلى يعدد على حتى لا يحرقنى . يا مرحبا اللى جيتى ياما القبر يقولك ياختى ... يا مرحبـا اللى جيتى ... وحياة شبابك لأدوبك وابليكى ، وقف الرجال عن يمينى وعن شمالى وخلفى ، ولمـا صرخت أتركونى ، لم يتركونى — فبكيت ، ووقفت أختى الصغيرة وصرخت : يا ناس، ما تفعلونه حرام يعذب أمى ، دعوها تنام فى هدوء ولا تحرقوها بالعديد . ثم أنها جلست تقرأ ما تيسر من قصار السـور . هو الحكيم قال ايه .. حكيم الندامة ياختى ... هو الحكيم

قال ايه ... عطـانى دوا ياختى ماجيتشى عليه ، يا خرابى ياختى .

يا دايـم هو الدايـم ، لا دايـم غير الله .

هب الرجـال يجرون ، وخرجت النسـوة السود وراء الخشبة الخضراء المحزومة بحزام أخضر .

يا دايـم هو الدايـم ، لا دايـم غير الله .

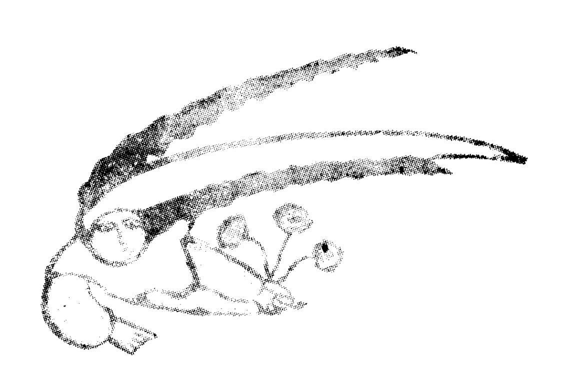
طلعت الخشـبة أمـام الجنـازة الى الطريق الزراعى ، انضمت الخلق الى الخلق ، استقبلوا الطريق الصحيح وبدأوا يزفون أمى .

يا دايـم هو الدايـم ، لا دايـم غير الله .

جرت الخشبة تكاد تطير — بل طارت — فجرت الناس وراءها ، ورأى البعض الشيخ عبد الله الضبعى يتقدم الجنازة فهللوا وكبروا وتعجبوا من ذلك ، أمسك عبد الصبور ماسح الأحذية بيد الرجال وكونوا حلقة كبيرة أمام النعش ، أخـذوا يسيرون بظهورهم للأمام ، يتمايلون ويقرأون :

وجزاهم بما صبروا جنـة وحريرا ، متكئين فيهـا على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . اقتربوا من جامع جدى الكبير ، الطريق مسدود بالناس والعربات . ويطـاف

عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا • يا خرابى يا عين أمك ياختى • قواريرا من فضـــة قدروها تقديرا • أخذنا نخلع أحذيتنا وتتسابق فى دخول الجامع ، قالت أمى : اذا صلى على أربعون مؤمنا ضمنت دخولها • حين اقتربنا من الترب نادينا : السلام عليكم آل دار الحق ، فردوا بأحسن منها ، ثم وضعنا الخشبة برفق أمام المقبرة المفتوحة ، وبدأنا فى دفن أمى •



حدث الراوى فقال :

(توهمت) أن روحى راحت ، وأنا الآن داخل قاعة مظلمة ليس لها ضبة ولا مفتاح ، فعلمت ان هذا قبرى ، ورأيت نفسى داخل كفنى بين أربعة جدران ومن حولى ظلمة ووحشة ، فبكيت على حالى ، وقلت أين منى أمسى وغدى ، وتأسفت على مسعاى وحلى وترحالى فى أرض الله الواسعة ساعيا سواحا الى بلاد تشيلنى وأخرى تحطنى ، بحثا عن يقين يدركنى بنفحة ، وبينما أنا كذلك اتفكر فى الملك والملكوت ، وان لله فى خلقه شؤونا ، وقد ردت الى روحى اذ هبط الى وانحدر من طاقة مدورة فى سقف قبرى لم أرها قبل ذلك الحين وفى دائرها صفة نور ، هبط ملكان طولهما لا يحده بصر ، وعرضهما مثل ذلك ، فى يد كل منهما مرزبة لو نزلت على جبل لدكته دكا

وجعلته هباء منثورا ، فعرفتهما ، وعلمت أن الســاعة ســاعة امتحان ، فقلت يا ساتر استر من الفضائح ، وألقى فى قلبى أن بصرك اليوم حديد ، فنظرت فى جهة ثعبانا كأنه الفيل العظيم لو نظر الى لمت ألف مرة من عظم خلقته ، ونظرت فى جهــة بعض من جهنم ، وفى جهة بعض من جنة ، فرق خاطرى ، وبين يدى وضع سجلى ، وتصبب العرق منى ، وسمعت فرقعة عظامى ووجيف قلبى من شــدة الوقفة والمسألة ، وليس هــذا بأصعب من لحظة قبض الروح ، ومباشرة سيدنا الملاك صنعته ، واذا لم تصدقونى فاسمعوا الآتى :

سيدنا الملاك

« سرى وسرك يا أمى فى طبق فخار والطبق
انكسر واتفرقت الأسرار »

(عدودة مصرية)

رف سيدنا الملاك بجناحيه رفتين وطار ، لما رأته أمنا طائرا فى السماء السابعة تحضرت للقائه ، وتعلقت أنظارها بسقف حجرتنا المسلح وتبسمت وتحيرت منا النواظر واستعرضت أعناقنا لما رأت منا العيون تصويرتين منقوشتين على سقف حجرتنا المسلح : تصويرة : سيدنا الملاك واقفا فى استقامة عجيبة وهو على هيئته كما يراه خالق الخلق وبين جناحيه مسافة تقدر بمسيرة خمسمائة ألف سنة ، ماسكا قضيب الموت ذى الشعب الثلاث هادمة اللذات ومفرقة الجماعات • وتصويرة : روح ستنا الطاهرة أمنا ترفرف فوق أسنة رمح سيدنا الملاك •

وذلك له سبب عجيب ، وأمر مدهش غريب ، نحب أن نسوقه على الترتيب حتى أن المستمع يلذ ويطيب ، بعد ألف صلاة ترضى الحبيب نقول — أن أمنا كانت بيننا فى تلك اللحظة تحدثنا بحديث الأمم الغابرة ، وكيف أن على الباغى تدور الدوائر ، وبينما نحن جالسون ، ولحديثها منصتون ،

واذا بالغبار قد علا وثار ، حتى سـد جميع الأقطار ، وبان من تحته سيدنا الملاك قاصـدا أمنـا بالتحديد ، ومن عينيه ظهر التهديد ، فما كان منها الا أن قامت من بيننا محنية ، وعلى سريرها راحت مرمية ، واذا بها فتحت فمها وتحدثت ، وبآخر نفس فى حلقها تكلمت : لا ييتئس أحدكم فهذا لا مفر منه ، وكل انسان لابد وان يبلغ عدمه ، حتى سيدنا المـلاك هـذا له يومه ــ اللهم لا شماتة ــ وهو حديث أحب أن أحكى لكم عليه ، والعاشق فى جمال النبى يصلى عليه .

تقول ــ أنها لمـا قالت حتى سيدنا الملاك له يومه الذى أحكى لكم عليه وذلك حديث عجب يكتب على آماق البصر بماء الذهب ، فسـوف يأتى زمن تقوم فيه القيامة وذلك بعد ظهور العلامات الصغرى والكبرى ، ويرسـل الرحمن بسيدنا المـلاك فيقبض فى أرواح الخلق بالشـمال واليمين ، من طير ووحش وجن ورجال ونسوان وبنات وبنين ، وبينما هو كذلك يأتيـه المرسـال أن أحضر فى الحـال ويقف بين يدى الملك المتعـال فيقول له : من بقى من خلقى ؟ فيرد عليـه : لم يبق الا الملائكة العظـام ، جبرائيـل الروح ، وميكائيـل المهيب واسرافيل صاحب الصور فيقول : اذهب واقبض هؤلاء ، فيقبض ، ولا يبقى سـواه فيقول له : من بقى من خلقى . فيرد سيدنا الملاك وهو يعلم ما سوف يأمر به : لم يبق الا أنا .

فيقول مت يا عزرائيل : فيموت من وقته وساعته ويكون قد ذاق من صنعته ــ اللهم لا شماته •

ثم أنها ما ان انتهت من كلامها حتى رأينا قدميها تختلجان وأصبح وجودهما فى عدم فأدركنا أنه بدأ فى مباشرة صنعته ، وبدا لنا سقف حجرتنا المسلح شاشة سينمائية تترى عليها صور متتابعة فهذه صورة : الست الوالدة فى شبابها ، شعرها مجموع على جانبى رأسها ومرسلا فى ضفيرتين فوق صدرها ، تظهر فوق شفتيها ابتسامة لطيفة ، عينان كحيلتان ، ووجه مشرق مليح ، فى الخلف أرض فضاء يحيطها سور غير عال ، على جانب من السور حجرة صغيرة معرشة بتعاريش من البوص وخشب الأقفاص ، على البعد حبل لا يكاد يبين عليه تعاليق من القماش المتآكل لونه لا يظهر • وأشارت لنا فأنصتنا : هنا كانت بدايتى الأولى ، وهنا أنجبتكم على التوالى ، لو جرب أحدكم برد طوبة أو حر بؤونة هنا ــ وبظت عبراتها •

وصورة : رأينا أنفسنا صغارا ، نحيط بها ، بعضنا يبكى جوعا ، أبونا نائما على سرير المرض عاريا ، فوق ظهره « لزقة » الشمس المخرمة وهو لا يتحرك أشارت للصورة وتنهدت : كان أبوكم لا يعمل ، وكان مرضه يشتد ، وأنتم جائعون وليس معى تعريفة واحدة فما حيلتى يا ربى ، جريت كما المجنونة أشعلت وابور الجاز ، وجدت بعض الدقيق فعجنته

بالزيت ، عملته أقراصـــا سويتها فأكلتم ونمتم ، وأنا وحدى ما كنت أرى النوم • صورة : للأم والأب ، هو واقف متكىء على عصا شيخوختـــه متحديا سبعين سنة ولت مترقبـــا زمن أبديته الآتى ، هى واقفـــة بجانبه تنظر اليه وقد ظهرت سنواتها الأربعون على وجهها الضعيف ، لونها أصفر مريض ، على شفتيها ابتسامة متعبة مستسلمة لزمن موتها الآتى وقد أحست بوادره •

صورة : فى سوق الخضار ، وقفت ترتدى جلابية سوداء مقطوعة عند الكتف ، على رأسها طرحة سوداء ، تمســك فى يدها شنطة خضـــار خالية ، وأشارت فأنصتنا : خرجت للسوق كما تخرج النسوان ، ولم يكن معى تعريفة واحدة ، أردت أن تعرف النسوان أننى أخرج للســوق مثل أى واحدة ، ورجعت كما خرجت ودمعتى على خدى ــ فما حيلتى •

رأينا صورة للأم والأب فى لقطة نادرة : الأب يحتضن الأم ويقبلها ، الأم تزقزق فرحا ، وجهها المشتعل بحمرة الحب يغيب فى صـــدر الأب ، فرحنا فرحا حقيقيا ونظرنا اليها فرأينا علامات الكســوف واضحة على وجههـــا ، رأينا أنفسنا نولد وتشقى ، رأيناها مريضـــة تصرخ ألمـــا وليس بيدنا حيـــلة فى مرضها ، رأينا الوالد يبكى ضاربا كفا بكف متمنيا لها الشفاء ، رأيناها تذكره بما مضى ، حديث دار بينهما ذات مساء : العيد الصغير يأتى دوما قبل الكبير نظرت اليه وأشارت : كلامك

تحقق يا حاج ، فأنا العيد الصغير وهــذه ليلتى . قالت ذلك وغابت عن وجودنا ، عن وجودها ، حسبنا أنها فارقت ، ولكنا رأينا عينيها ترنوان الينا ، وسمعنا صوت تنفسها بطيئا واهنا ، ثم أنها طلبت منا السماح ، فصار كل منا يعطيها من الســماح على قدر معرفته حتى كان السماح الأخير لأبينا فتركناهما تأدبا وخرجنا ، وكل ما جادت به أعيننا أفرغناه ، فالغالية بين يدى الرحمن وملائكته يباشرون عملهم ، ولا يحق لنا سوى الدعاء أن هون عليها السكرات وانها لشديدة وبينما نحن كذلك سمعنا صوت أبينا فدخلنا فاذ به فى بكاء وصياح ، وبعزم صــوته ناح فاقتربنا من السرير ، وأحطنا به كما يحيط النيل بالبلاد أو السواد بالبياض ، ونظرنا الى أمنــا التى كانت ترنو الى سقف حجرتنا المسلح وقد بانت عليه تصويرة : روحها ترفرف فى يد سيدنا الملاك .

حدث الراوى فقال :

كانت الأرواح فى الزمن القديم هائمة فى ملكوت الله ، وكان اذا قبض مـلاك الموت روحـا من الأرواح التى انتهت صلاحيتها للحياة أخذها الى جهة معلومة ، فاجتمع من كل ذلك الشيء الكثير على مدار الأعـوام والدهور ، حتى صـارت أعدادها أكثر مما يتصور أى انسان ، وكانت توضـع فى مكان مسور بسور يبلغ طوله السموات السبع ، وعرضه مثل ذلك ، فاذا ما حـدث واشتاقت أم لولدها الذى قبض ، عزمت على الرحيل الى أرض الأرواح لتقف تحت هذا السور وتنادى روح ولدها فيحضر اليها على صورته الدنيوية ، فيحدثها وتحدثه الى ما شاء الله ، فحدثت البلبلة ومن أجل ذلك ، فمن يومهـا حتى الآن تذهب الروح الى مكان لا يعلمه الا خالقها ، وهـذا المكان هو ما يسمى بالبرزخ • وقد ذهبت اليه روحهـا ، وهو حديث عجب ، يكتب بمـاء الذهب ، فاسمعوه من فم رواته الحقيقيين ، صلوا على الحبيب :

خيـــط اللبـــن

- من يحكى للرمــال
- الولد جلجل والكلب سامبو
- الموت اصــله حـكاية

« واحلفك يا قبر تسليه يا دود
ما تبلغ مرادك فيه » .

(عدودة مصرية)

من يحــكى للرمــال

فتكم فى الكــلام يا ناس ، فان أمى حين ماتت كان من يراها يظن أنها نائمــة بحكمــة الله تعالى ، فكيف كان ذلك ؟ صلوا على الحبيب : لمــا قال الحكيم أبى : النملة ساعة القضاء تموت الثعبان • تنهدت أمى ، ونظرت الينا فى حسرة ، ثم قالت بعد أن ذرفت عبره أكمل يا حاج • فقال الحــاج أبى : والعيد الصغير يأتى دوما قبل الكبير فله فى ذلك حكم • وكنا حواليها ، أمى المريضــة بداء الكلى التى دوختنا ولم ينفع طب الأطبة • قالت أمى وأخذت تشــوح بيديها فى فضــاء سقف حجرتنــا الدافئة : والليل لا أنام الليل ، وسببه غرامك يا ســيد كوم الضــبع •

قال أبى : حدثينــا يا أم العيــال ، كيف جاءك مولانا الضبعى • فاستطابت أمى الحديث : لحظة أتانى فى المنام ، ضم

نفسى الى نفسه فكدت أفارق ، لكنه طمأننى ، وأشـار لى بالكلام وأذن بالشكوى فبدأت : طبيبى معى جرح واجعنى ، أخاف أقول آه لكلام الناس يوجعنى • طبطب على ظهرى فكان بردا وسلاما فأكملت : الصبر منى اشتكى يا طبيب • الحق أقول لكم ، طيب خاطرى ، ووعـدنى بالشـفاء ومداواة كل مجارحى • قالت أمى ثم مددت على السرير وماتت ــ فكيف كان ذلك ؟

فتكم أيضا فى الكلام ، فان أمى قبل ذلك بأيام ، حنت كفى يديها ومشطى قدميها بالحناء المخلطة بالقرد ثم قالت : نفسى أزور مولاى أبو السعود ــ هكذا أمرنى مولاى الضبعى حين قال ارمى حمولك يا أمينة على السـادة أصحاب الطول والعرض فهم أولى بالشفاعة ، واذهبى لأخى أبو السعود فهو منى • حملناها على أكتافنا هى التى لم تحمل من قبل الا من أبى ، وتذكرنا لمـا وقفت ترقص كما الرهوان يـوم نجحت ابنتها أول بطنها فغنت وأطربت السامعين : من الثانوية للكلية والمجموع قرب على المية ، فانفطر قلب الأعداء وازدادوا حسرة على حسرة ، ولا لمـا رجـع أبى من أرض الحجـاز فعلقت الكهارب على باب بيتنا أسبوعا الا يومين ووقفت تنتظر الحاج الذى عاد يحمل فى رقبته عنقودا من التين البرشومى الناشف ، ولم يحفظ من حديث الحج سـوى الهرولة كمـا الزناجرة

ورمى الجمرات التى أصابه منها أكثر مما أصاب ابليس ، ولما حملناها كانت ثقيلة ، فان الكلية حين يصيبها العدم تثقل الجسم العليل وتصيبه بالوخم — تقول أمى ٠

لما اقتربنا من المقام ، زغردت أمى وأشرقت دمعتان على خديها وكنت أقرب اليها منها فمسحت دمعتيها وتفاءلت ، قلت ما نفع دواء الأطبة ، فهل ينفع زار الكدية ؟ ، اشتريت لأمى كوز ماء مالح من جنب المقام ، شربت أمى من ماء الشفاء وغسلت وشها وشلحت جلبابها الأسمر وملست بالماء على بيت الداء فشعرت بالشفاء من وقتها وساعتها ٠ قالت : الآن أنزل الدقة ٠ وقالت : أنا أحس بزوال الداء ٠ هللنا وكبرنا وحملناها الى الدقة ، جلست أمى وجلسنا حواليها نرى ونسمع ولا نتكلم ، أول ما سمعت ، سمعت دقة « الغيطانى » فما قامت، وثانى ما سمعت ، سمعت الدقة « السودانى » وما قامت أيضا ، وثالث ما سمعت ، سمعت دقة « سلام ياللا » قامت رمحت كما غزال البر ، هللنا وكبرنا أن قامت أمنا بالسلامة ، وبدأت تهتز هزا يسر الناظرين ، قلنا : هزى يا أم جذعك واهتزى ، لعل المرض ينفرط ويبرأ بدنك من علته ٠ علا وارتفع صوت الصبيت والناس ترقص بين يديه ، وكل من له نبى يصلى عليه : ليه يا حمام بتنوح ليه ٠٠ بتنوح ليه ، فكرتنى بالحبايب يابو عطالله ٠ الله أكبر ، هتفنا ونحن نرى أمنا ترقص رقصا

ما رأيناه من قبل • رايحين تغيبوا سنة ولا تغيبوا اتنين ...
رايحين نغيب على الدوام متتوحيش يا عين • رقصت أمي رقصة الأوزة التي حكت عنها وقالت عجبا ، كيف ترقص وهي ذبيحة ؟
ثم أنها دارت دورتين ووقعت على الأرض مغشيا عليها ،
رأينا — والشهادة لله — العفاريت وهي تنط من أجساد الخلق ، قلنا هي العفاريت اذن سبب مرض أمي ، وقلنا لابد وأن تكون قد شفيت الآن ، فأخذناها الى البيت على أنغام الزغاريد ، ولكن أمي حالما وصلت ، صعدت الى السرير ومدت بدنها وماتت •

فكيف كان ذلك ؟

صلوا على الحبيب :

الولد جلجل والكلب سامبو

هو الولد جلجل صاحب العربة السريعة والكلب هول الذى يجرى وراءها كلما نادى عليه بصــوت عال : تعــالى يا سامبو • فيأتى سريعا ــ سبب موت أمى •

وهو الولد جلجل صاحب الأفعال القبيحة والذى فعل مع أمه ــ أختها ــ لمـا مات أبوه ما تفعله كلاب الحارات ، حين باع البيت الكبير العالى ساتر كوم اللحم فماتت أمه من وقتها وساعتها حزنا وكمدا على بناتهـا الخمس الصغار ، بعد أن أصبحن دون ساتر يسترهن •

وهو الولد جلجل الذى هدد أمى « بالفرفر » اذا لم تمش من بيته الذى لم يعد بيته ســوف يقتلها لمـا ذهبت اليه تحاول اصـــلاح فرعه بعد أن مال ، وهى الوصية على أولاد أختهـا •

وهو الذى باع عربته السريعة جدا ولم يجد كلبه سامبو ما يجرى وراءه فمات حزنا ، وجاء يرمى بدنه علينا فطردناه ،

وزوجة خالي — الله يستره — من تربى أولاد أخته وتلم اللحم الصغير ، نفس ما حدث مع أمي لما تزوجت أبي كي تربي أولاده الثمانية وهم عنها كبارا ، فشالت الغم والنكد حتى ماتت ، وكانت تدعو في السر والعلن : حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا أبي ، وأنت أيضا يا أم •

وهو الآن يشقى بدعاء أمه عليه لما وقفت في ليلة مولانا الضبعي وشلحت شعر رأسها ودعت عليه بالصوت العالي : الهي ما تكسب ولا تربح يا جلجل يا ابن بطني أنت وأبوك في تربته ، يا وارث طباعه الخسيسة وشارب كينا البطل الحديدية •

وكانت أمي على فراش المرض الأخير لما جاء يبكي طالبا السماح ، فنظرت اليه نظرة موت وقالت : من لا يبكي على وأنا حية ، وقت الممات يوفر دموعه • فازداد حسرة على حسرة ، وأيقن بالشقاء الأزلي وهلاكه على أيدي أمه وخالته لأن دعاءهما مستجاب •

وهو الذي جاء لأمي بليل ، وأمه على فراش الموت مناديا اياها : تعالي شوفي أختك تموت ، فماتت أمه ليلة الجمعة ، أعقبتها أمي في نفس الليلة بعد عام — وهذا اتفاق عجيب (يا سادة) ما خبره أحد قط •

الموت أصله حكاية

مفسلة :

فى البداية أقول ــ اسم الله على السامعين ــ أننى صحوت من نومى مبكرة كالعادة ، ولكنى بدرت فى هــذا اليوم لأنه عيد ، طلعت فوق السطح لأجمع بعض أقراص « الجلة » ، نزلت فأشعلت الفرن وجلست أمامه وحولى دوائر « الرقاق » ، غمسته فى اللبن ووضعته فوق بعضه فى الصينية الأولى بعد أن أضفت اليها السكر فى اللبن وأدخلتها الفرن ، أخذت أعمل فى الثانية فأحضرت اللحم المفروم من ذبيحة الأمس ، وضعت الرقــاق وفصلت بينه بقطع اللحم الصغيرة ، حين انتهــائى وضعتها فى الفرن ، قلت : لابد أن صلاة العيد علىوشك الانتهاء ، ولابد أن أبا عطية على حضور الآن هو والأولاد فيجدون الصوانى جاهزة ان شاء الله وربنا لا يقطع لنا عادة ، وكنت جالسة أرقب الفرن حين ســمعت الباب يدق ، قلت : الجمــاعة حضروا • وفتحت الباب ، رأيت أم « السعد » امرأة « ماضى » الجزار واقفــة

ترتدى السواد وتبكى ، ارتبكت ، قلت : مالك كفى الله الشر .
قالت : عمتى أمينة تعيشى أنت . خبطت على صدرى : يا عين
أمك ياختى ، يامصيبتى ياحبيبتى .

كانت أمينة تربية يدى ، وكنت أعزها معزة الولد ،
حنكها لم ينطق العيبة أبدا وبها من العقل ما لو وزع على البلد
لكفاها ، الشهادة لله ، أحسست أن هذا العيد عيد شؤم على
البلد ، قلت : فى أى وقت ؟ قالت جاءوا بها مساء أمس وكانت
الروح فيها ، لكنها ماتت لما وضعت رأسها على سرير أمها
وأبيها . قلت : ليتنا ننولها هذه الميتة ، ماتت فى ليلة مفترجة.
ارتديت هدومى وخرجت معها بعد أن أخرجت صوانى
الرقاق من الفرن نصف « سوى » ، ومن له نفس لأكل
الرقاق .

لما وصلت المنزل ، وجدت لمة كبيرة ، ووجدت العويل
والصراخ والبيت شعلة نار والعة ، البنت لسة صغار ياروح
أمها ، ربنا يصبر قلوبهم ، فالبلد كلها مقلوبة والجميع حزانى
لفقد أمينة ، دخلت عليها وحدى ، كشفت وجهها فوجدتها ـ
سبحان الله ـ كأنها نائمة وليست ميتة ، ورأيت وجهها يشع
نورا فيملأ الحجرة ، انحنيت عليها قبلت جبينها فوجدته ساخنا .
ـ يا اخوتى كأنها ـ نائمة ـ سمعت صوتا يرتل القرآن
ترتيلا من داخل الحجرة ـ تعجبت ـ بحثت عن آلات

الغسل فوجدتها كاملة ومعدة خير اعداد ، قمت بخلع ملابسها ، تحركت يدها لتستر عورتها ، ووجدتها تبتسم وتنظر الى أعلى ، حمدت الله وأثنيت ثناء جميلا ، شمرت كمى وبدأت فى تجهيزها ، سمعت بكاء النسوة وعديدهن فخرجت ، قلت : لا تعددن على المرحومة فالرب يرعاها وكلنا أموات ولاد أموات •
دخلت مرة أخرى ، لم أتمالك نفسى مما رأيت فكدت أفارق وغشى على مقدار ساعة زمانية ، فاننى لحظة دخلت عليها ، وجدت حواليها ناسا كثيرين يرتدون بياضا فى بياض ، يكلمونها وتكلمهم بلسان عربى فصيح ، ووجدتهم يقومون بتجهيزها •
لما أفقت وجدتها جاهزة فى كفنها الأبيض الشاهق ورائحة المسك والعنبر تملأ الحجرة فكدت أفارق من شدة الرائحة ، خرجت من حجرتها لا أكلم أحدا من شدة عجبى ، ومن عظمة ما رأيت ، وحتى الآن لا أصدق ما حدث ، ولكن من شاف ليس كمن سمع ، وقد رأيت ما رأيت والسلام •

الموت أصـله حـكاية

ملحـــــد :

بصراحة ربنا ، أنا الشيخ عطا الله جـاد الرب ، رأيت ما لا عين رأت ، وسمعت مالا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر قط ، اذ جاءنى أهل المرحومة أمينة وكنا صـباح العيد الكبير ، يدعوننى لأقوم بدفنها وأنا فى الحقيقة كنت مريضـا مرض الموت الذى لا شفاء منه كما قال الأطبة ، ولأن المرحومة عزيزة على أهل البلد جميعا وعلى أنا الذى رعيت صباها ونشأتها الأولى ، فقد أصابنى غم شديد ، ثم أننى تحاملت على نفسى وأسندونى حتى « الترب » وتركونى ليقوموا بتجهيز أمينة رحمها الله ، ماتت فى ليلة مفترجة ، هيييه ... أنتم السابقون ونحن اللاحقون وكل من عليها فان .

كنت وحدى ، والبلد كلها مشغولة بموت أمينة ، اتكلت على الله وقلت ربنا يقدرنى وأقدر أفتح تربتها ، مددت يدى لأنزع قوالب الطوب فاذا بها منزوعة ، تحسست القفل فوجدته مفتوحا أيضا ــ بصراحة ربنا ــ تعجبت ، فأحد لم يفتح التربة قبلى ، ما علينا ، لمـا دخلت لأجهز اللحد وجدته جاهزا نظيفا

ومندى بالمسك والزعفران ، ورائحتهما تشم على مسيرة يوم وليلة ، وسمعت من الداخل أصواتا تقرأ : تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير — سبحان الله — جاءت الجنازة ، وضعوا الخشبة أمام تربتها ، ناولونى الجثة فرأيت كفنا ما رأيت مثله قط ، سميت عليها ولم يدخل معى أحد ، والميت ثقيل الحمل ، وهم يعرفون شدة مرضى ، المهم أننى عزمت وتوكلت على الحى الذى لا يموت وحملتها وحدى ، واذا بالجثة خفيفة على يدى ، ورأيتها تفلت من تحت باطى وترتفع فى سماء التربة فتتخطى أربع جثث كانت قريبة من الباب ، ثم أنها استقرت فى لحدها تماما ، فعرفت أنها من محاسيب مولانا عبد الله الضبعى ساكن البحر — مدد — أخذت حفنة من تراب التربة بكفى وقرأت عليها : بسم الله ومن الله وعلى ملة رسول الله ، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، انا لله وانا اليه راجعون . اقتربت منها وركعت أفك أول رباط فى الكفن فوجدته مفكوكا ، ووجدت الجثة معدولة ناحية القبلة ، وضعت حفنة التراب تحت صدغها اليمين من سكات وخرجت وأنا أضرب كفا بكف ولا أكلم أحدا ، وكتاب الله المنزل آنا روحت بيتى أرمح كما فحل الجمل بعد أن كنت لا أقدر على السير وحدى خطوة واحدة ، ومن يومها لم يدخل المرض جسدى ، فهذا ما حدث بالتمام والكمال ، والحمد لله على كل حال .

توهـم نـوحى

حدث الراوى فقال :

(توهمت) نفسى كما الغراب النوحى ، وقلت الحــال من بعضه ، فكما ينوح الغراب ، هكذا أنا نياح على موتاى ، وكأن الدنيــا عدمت ناسها ، وكأن همى وغمى لا ينتهيان ، سلواى فى التذكرة ، وسياحتى وتفريج كربى عند أهل الآخرة ، زمنى غريب ، وخطبى عظيم ، ودوما دوما فى توهم دائم كأنى لا أعيش دونه ، وكأنه يتنفس دمى ، حتى صرت أنا والتوهم اثنين فى واحد ، وحتى صرت اتوهمنى فى كل أحــوالى ، فى غدوى ورواحى ، فى صحوى ونومى ، سرائى وضرائى ، محياى ومماتى ، فيانكدى على دنياى ، كر وفر ، اقبال وأدبار ، هكذا فى كل الأحوال ، ما نقص شىء الا ليكتمــل ، وما اكتمــل الا لينقص — فسبحان مغير الأحوال — المهم اننى أمسكت ربابتى فى يدى ، وعلى جسدى ارتديت كفنى ثم اننى رميت

نفسى فى توهم صعب ، أعرف حدوثه مهما بعدت المسافة وطال النأى ، فهــذا أمر مكتوب وليس منه مهروب ، وما خشــيت الا شيئين : موت الفجأة ، وموتى وأنا لا أباشر صنعتى ، وكنت أظن أنه لا يوجد فى زمنى اصبر منى على مواجهــة الموت ، لمــا أعرفــه وخبرته ولى فى هــذا الباب مبــاحث كثيرة ، ولمــا وطنت النفس عليه منذ النشأة الأولى وصرفها عن اللهو ومتع الدنيا لعلمى بوقوعه لا محــالة ، ولادمــانى النظر فى الكتب القديمة فقد اطلعت على نصيب وافر من هذه الناحية ، وكدت أحفر لنفسى قبرا فى محــل سكنى ، فأمكث فيه الى ما شاء الله ، وقد رأيت فى هذا الباب ما لا عين رأت ، وسمعت ما لا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب حى قط ، وقد انقسمت على نفسى الى قسمين ، قسم يعيش عيشة أهل الدنيــا ، وآخر يعيش حياة أهل الآخرة ، فكنت كالمعلق بين السماء والأرض ، فصرفت النفس عن الخوض فى ذلك التوهم ، وعلى الا أعود الى هذه المسألة بعد اليوم ، وليقض الله أمرا كان مفعولا ، فلا أدرى ماذا أكسب غدا ، ولا أدرى بأى أرض تكون قيامتى، فقد شاب شعرى من التفكر فيها ، وانهد حيلى وعدمت عافيتى فى انتظارها وترقبهــا ، المهم ، بينما أنا هــكذا اتفكر ، واذا

بربابتي تأخذ وضعها الصحيح في يدي واذا بهـا تعزف لحنـا دار في خاطري وكنت أظنني تركته واسترحت ، وبدأ صوتي ينوح ولساني ينطق غصبا بهذين البيتين :

خلقت من التراب فصرت شخصـا
فصيحا في السـؤال وفي الجواب
وعـدت الى التراب فصرت فيـه
كـأني ما برحـت من التـراب

وكأن العجوز ــ أبي ــ بدأ تغريبتـه ، لمـا وقف على المزلقان في انتظار زوجته المريضة ــ أمي ــ ليطمئن عليهـا ، فهل اطمأن ؟ اسمعوا :

تغريبـــــة

« عدتوش تعودوا للبيوت يا صحابها »

(عدودة مصرية)

ارتدى البالطو الصوف البنى القديم الموبر فوق جلابيته ولبس حــذاءه وطاقيتــه وخرج قال : أخرج يا واد اتمشى لحد ما يرجعوا • كان البيت خاليا الا من بعض الجيران وزوجات وأزواج أبنائــه الاثنى عشر ، شــعر بالزهــق والوحــدة ، جلس على كرسى وضعه له شحاته الطعمجى حين رآه ، وضــع رجلا فوق الأخرى وأخرج من جيب سيالته باكو المضــغ وأخذ بعض الأوراق‌فركها بأصابعه ووضعها فى حنكه وجرش وراءها قطعة قطرون ، تمخض ورمى ريقه تحت قدمه وفركه مع تراب الأرض بمداســه ، اليوم يكمل عامه الثمانين ، واليوم اشتد عليها المرض وزاد ، واليوم تشاءم جدا لمــا رأى الجميع حولها، لمح نظرة المعزيين فى العيون ، دائمــا لا يجتمعون الا لمصيبة تحدث أو على وشك ، عادته المفضلة هى الجلوس على ناصية الحارة أمام المطعم ، وأمامه كان يقع محل عصــير القصب ،

الجميع يعرفونه ، يبادرون بتحيتــه لحظة ظهوره ، يجلســون بجانبه ، يبدأ فى غناء موال يتبعه بقفشة فيضحكون ، ساعتها يكون فى قمة انبساطه ، يقولون له : يا بختــك .. لا تحمل للدنيا هما .

يرد وهو يلوك أوراق المضغ : العمر ولى ومن كســلى بمضيع فبه . يقولون : سوف تعيش مئة سنة أخرى ، يهز رأسه وساقه : أهو كلام ابن عم حديت ، بقى ده معقول ، هو البحر مبحر يرجع يقبل تانى ؟

صن يا وله انت وهو لمـا نسمع الدور دهو . كان الصوت يأتيه من محل العصير : طلع البلكونة بسكينته ، يقول جرح فى قلبى سكنته يا ناس وسعوا لى سكة اتتو . نظر الى الجميع ، قال : الكــلام ده حصــل بصحيح أيام زمان ، متولى انجن لمـا شاف أخته شفيقة دايره على حل شعرها ، ولمـا لم يجد تعليقا على حديثه اكمل : بس ده مش وقته أشار لبائع العصير : الدور التانى أحسن ، الله يرضى عليك يا شيخ تشغله ، هــذه القصة لا يزهق من سماعها ، يقول : قصة خالد وجميل وشلباية

قصتى ، تغريبتى فى بلاد الله دون أنيس ولا ونيس ، لحظة سماعها تدمع العين ويحزن القلب ويشعر بالأسى ، يقف عند أحد المقاطع ، يظل يردده حتى يكاد القلب ان ينفجر ، صن يا وله انت وهو : مكتوب عليا اهاجر من البلد وغريب .. من بعد أمى وأبويا ماليش حبيب وقريب . واذا كنت هاعيش غريب .. هاييجى يوم وتعوزنى.براوة عليك ، دور حلو صحيح، يهز رأسه ورجله ، يتأمل المارة فى شارع همفرس المزدحم ، يتمخض ويبصق لعابه ، يخرج من جيب سيالته ورقة المضغ ، يأخذ بعض الأوراق يضعها فى فمه ، يتأمل زمنا ولى وانقضى ، خروجه من قريته يا مولاى كما خلقتنى — يقول : خرجت يد من أمام ، وأخرى وراء ، وامرأة أبى — رحمها الله ، كانت كأمى رحمها الله ، وأبى — رحمه الله مات وهو يدعو لى دعواته الثلاث : تكسب ، وتربح ، ويحبب فيك خلقه ، لم يعطنى سوى الدعوات ، طفحت الدم حتى وقفت على حيلى ، مات ابنى الكبير — رحمه الله من زوجتى الأولى — رحمها الله ، انجبت ثمانية وماتت رحم الله الجميع . انتبه لصوت شحاتة الطعمجى : مالك يا عم الحج . التفت اليه : مالى على الله ، العمر ولى ومن كسلى بمضغ فيه ، مال ميلا خفيفا رافعا وركه

وضرط بصوت عال سمعه الجميع ابتسم وعلق : والنبى يابنى كل ده قهر وبيطلع من القعر • ضحكوا ، يحسدونه على مرحه ، هم لا يعرفون ، أمينة مريضة ، كانت صغيرة حين تزوجها لتربى أطفاله الثمانية ، انجبت أربعة أولاد وأصيبت بفشل كلوى ولم تفرح بأولادها بعد • قام واقفا واستأذن وسار عائدا الى البيت ، ببطء كان يسير ، قدمه تزك زكة خفيفة ، على لسانه يتردد مواله الازلى : مكتوب علينا اهاجر من البلد وغريب ، مازال البيت ملآن بالناس ، يجلسون فى انتظار عودة أمينة ، أخذها جمال معه ، أجر عربة وحملها على كتفه ولم يدع أحدا يذهب معهما ، ابنها الكبير ، دائما هما على خلاف ، ملأ البيت بالكتب ، له نظرات تحيره ، يختلف عن أبنائه الاثنى عشر فقد تعلم فى المدارس ولم يعرف صنعة كأخوته ، اطمأن عليهم جميعا الا هو ، كلما دخل عليه حجرته وجده يقرأ ، ينظر الى الكتب واليه ، يقول : هاتعمل ايه بالكتب دى كلها ، بعها أحسن واشترى لك حاجة تنفعك ، كان ينظر اليه ويضحك فى سخرية ، يأخذه على قدر عقله ، يهز رأسه ويمضى وهو يردد : خيبه وحطت على راسك يا محمد ، حدانا شجرة وفيها فرع مال ، ان نفعت تعالى شخ على قبرى •• هأو ، الصالة ملأى بالنساء ، بناته وزوجات أولاده فى الزوايا والأركان ، لا يعرف

من ابن من من كثرتهم ، يذكر لحظـــة مجيئه وحيدا من قريته ، احساسه بالوحشة فى تغريبته الأولى ، بحثه عن عمل فى بلاد لا يعرف فيها رأسه من رجله ، ياه ــ كل هــذا الجيش جاء من صلبه ، كان كلما رآهم يخبط على صدره بقبضته ، يهتف : براوه عليك يا محمد ، ابن أبوك صحيح ، أولاد آمينة يسميهم الترقيدة الثانية ، الترقيدة الأولى فلحت ، تعلموا صنعته وبنوا بيوتا وسافروا الى بلاد العرب ، أما أولاد آمينة فقد دخلوا مدارس ولا أحد يكسب منهم قرشـــا ، يقول : أنا لا دخلت مدارس ولا يحزنون ، لكنى أكتب اسمى وأحسب حسابى ، علمت نفسى بنفسى • هتف : العيال اتأخروا ، سمعهم يطمئنوه ، يا أولاد الايه ، لا تجتمعون الا فى المصـــائب ، أشاح بوجهه وشوح بيده وخرج للشارع مرة ثانية ، العيد الصغير يأتى دوما قبل الكبير ، تذكر كلماتها وهو يزك برجله خارجا الى الشارع الكبير ، توقف وأخرج بعض أوراق المضـــغ وضعها فى فمه وجرش وراءها قطعـــة قطرون ، كان شـــارع همفرس مزدحما بالناس والعربات ، من خمسين سنة كان خاليا تماما ، لم يكن هنـــاك الا الزراعـــة ، هو البناء يعرف تاريخ هـــذه البيوت ، على يديه هو وأبناؤه قامت بولاق الدكرور ، تغيرت

الأحوال وأصبحت الدنيا غير الدنيـا ، اقترب من المزلقـان ووقف عند الناحية التى تأتى منها العربات ، ارتكن على سور وردد دورا كان يحفظه : كفاية يا زمان بزيادة معادية .. خلتنى حيران مع دا ومع دية كمثل غرقان مش طايل معدية ، كان الوقت يمر بطيئا وأحس بلسع برد فرفع ياقة البالطو وزمه على جسده النحيل ، طوفان العربات لا ينقطع ، لكنـه لمح العربة التى أخذت أمينة ، ولمح جمال ابنه جالسا جنب السائق وأخته جالسة فى الخلف ، رأى أمينة نائمة على صـدر ابنتها ، حاول الاقتراب من العربة ، زعق وأشار لهم بالتوقف ، لم ينتبهوا له وجرت العربـة من أمامه مسرعة فجرى وراءها عائـدا الى البيت .



توهم المسافر

حدث الراوى فقال :

(توهمت) توهم المسافر دوما باتجاه الزوال ، ربابتى على كتفى ، وصرة حشوتها حكاياتى ، وكأنى على متن ريح ، ومظلل بالغمام ، والمحطات تفر من أمام عينى ، وكلما أتت محطة ، توقفت برهة لالتقط نفسى ، واسحب ربابتى عن كتفى ، أضعها بين أصابعى ، وأضرب على الأوتار لحنا أعرفه ، أتبعه بآخر لا أعرفه يجىء عفو الخاطر ، وأرى الدنيا من تحتى كأجمل ما تكون ، وأراها ساجدة تسبح فى ملكوت الله ، واذا الكائنات تلتم من حولى ، تطرب لسماعى وترقص على أنغام ربابتى ، تبادلنى النشوة ، تتوحد فى نغمة كونية واحدة ، وأنا لا أنتهى من لحن حتى أبدأ بداية أخرى أعلم أنها ستسلمنى الى نهاية أخرى ، فيرق حالى ، ويجيش القلب بلحن يعرفه حتى آخر المحطات ، وترسل ربابتى لحنها الأخير وتتوقف تماما ، أعاود المحاولة ، أهدهدها بين أصابعى دون جدوى ، أتوسل : استمرى

أرجوك ، وقوفك يعنى موتى ، فصـــوتك من صوتى ، فيرق وترها لى ، وترسل لحنا أخيرا يقول مطلعه : كن رجلا وتقبل نهايتك .

لقد عرف البيت وانتهى الأمر ، فهل يستطيع أحدنا خداعه، واحد فقط كان مجهزا للقائه ، سوف ترونه الآن حين يســمع اسمه من فمى وأنا أحكى عنه ــ فانتبهوا :

تــذكرة العبــاد
بسيرة عبد الجواد

« قالوا النهاردة العيد انا قلت العيد لأصحابـه
وايه يعمـل العيد للى اتفرق احبابه » .

(عدودة مصرية)

بين عسعسة الليـل وتنفس الصبح ، أعلن نبـأ موت عبد الجواد كبير الجوادية البالغ من العمر ارزله والعائش من أعمـار الخلق مائة سـنة الا عشرين ، أعلـنه أخوه الأصغر لمـا خرج على الملأ بنبأ المصاب الجلل بعد أن ظل ينازع مر المنازعة مدة ثلاثة أيام بليلتين حتى تعب فأسـلم نفسه للموت مطمئنـا .

أعلن النبأ بينما كان ابناؤه الاثنا عشر ذكورا واناثا ، ما بين نائم وقائم وأولادهم وأولاد أولادهم يملأون حجرات البيت بشخير منظم متصل ، وحين دخلنا عليه حجرة موته ، كان أول ضـوء للفجر لم يشهده يتسلل من نافذة وحيدة ، رأينا عينيه ترنوان الى الجو الأعلى ، ورأينا بقايا معركته الأخيرة مع ملائكة روحه فشعرنا برهبة ، وكانت رائحة الموت الغامضة موزعة فى أركان الحجرة وحول سريره ، المـلاءة ــ ملاءة غطائه ، كنبة جلوسه فى مواجهة سرير موته ، رفعنا الغطـاء

وتحسسنا الجسد الذى ظل محتفظا بسخونة نضاله المعجز ،
قمنا بتسخين المـاء وغسلناه غسلا جيدا ، وآرحناه على ظهره
غسلنا قروحاته المتيبسة من رقدته الأخيرة ، ألبسناه جلبـابه
الأبيض النظيف المعطر بعطر ماء الورد لففنا حول رأسه شالا
أبيض نظيفا فأحكم أغلاق فكيــه ، سبلنا عينيه وفردنا عليــه
ملاءة ، حين أتممنا ذلك قامت كبرى بناته ووقفت فى بئر السلم
وأعلنت النبأ صريحا فى صــوت عواء متصــل ليعلم القاصى
والدانى ، بينما كان أخوه يرتدى عباءته مغادرا البيت ذاهبـا
الى كوم الضبع حامـلا النبأ ومنتظرا أخاه فى رحـلة عودتــه
الى مسقط الرأس ميتا بعد أن رحل عنها فى مطلع صباه ساعيا
سواحا فى بلاد الله بحثا عن لقمة عيش ومستقر فوجدهما فى
بولاق الدكرور ، وحيث كون عائلته التى تجـاوز عـددها
الستين ـ ستين حنكا يأكلون بقرة بخرائهـا ـ كان يقول
ويضحك فخورا وضاربا على صدره بقبضته ـ جاءوا من صلبى
أنا وحدى ـ جاءوا من زوجتين لم تحتملا فحولته فماتتا وتركتاه
يلوك وحدته حتى آخر أيامه التى فكر فيها أن يتزوج للمرة
الثالثة وحال مرضــه دون ذلك ، كان يلمح تلميحا مستطلعا
رد فعل أبنائه الستين الذين تساءلوا كيف يتزوج ابن الثمانين !
وهل يقدر على ذلك ؟ ولا يدرون أنه كان أكثر فحولة عن ذى
قبل ، وأن سائله المتدفق فى صلبه دوما نغص عليه حياته موحيا
اليه بفكرة الزواج من امرأة شابة تعيد اليه صباه الذى ولى

وتملأ عليه وحدته الأكثر حدة ، والتى ما ملأها أولاده وأحفاده الأكثر عددا من البط والأوز والفراخ والحمام الذى يربيه على سطح بيته .

فى كوم الضبع أعلن النبأ ، أعلنه أخوه لما وصل فى الساعة السابعة من صباح موته فهجت الناس وضجت وتجمعت على الزراعية أمام الترب تنتظر ، كوم الضبع ترقب أبناءها العائدين ، تلملم أشلاءها المبعثرة ــ تشرق تغرب لا مفر من العودة ، تبنى وتعلى ولك فى النهاية متر فى متر ــ كان يقول ويرسم بأصابعه على مداميك الطوب المرصوص بيديه ، يرسم روءوسا كثيرة ، يرسم أرجلا وأيدى بأعداد كبيرة ، يرسم خيوطا مشدودة الى دائرة ، يصل الخيوط بالروءوس والأرجل والأيدى يشير بأصابعه : هذه الدائرة هى كوم الضبع ، هذه الروءوس نحن ، وتلك هى حبالها الأبدية ، قد تقطع الخيط ونفر أحيانا ، لكن ثمة خيوطا أخرى لا نراها تشدنا اليها فلا نضيع منا أحد فى زحمة المدن الكبيرة .

قبل بضعة شهور من رحيله الأبدى ، كان يحمل عصا زمنه المولى سائرا سواحا ، يجوب حوارى بولاق الدكرور ودروبها ، يرصد ما تغير منها وما ظل على حاله وفى عينيه تلتمع حبات ماء تترقرق وتنز على جانبى الوجه : هنا كانت توجد جنينة الخواجا همفرس ، قصور الملك فاروق ، قصر

الملذات ــ هنا قتل صاحبى حارس القصر لحظــة تعرفه على صاحب الجلالة ــ وكان يا ما كان فيه ملك اسمه فاروق صاحب عز وجاه ، وكانت مملكته تسمى مصر المحروســة ، وكان له نديم من بلاد الفرنجة يسمى همفرس ، فاتفق أن همفرس أراد أن يهدى للملك هديــة فابتنى له قصرا على حدود المملكة فى ضاحية من الضــواحى تسمى « بولاق الدكرور » وجعل هذا القصر أعجوبة من العجائب وغريبة بين الغرائب وســماه قصر الملذات ، وصار يجلب له من الجوارى أصنافا ، وكان الملك محبا للنساء فكلما أحس بضيق تنكر فى زى تاجر من التجار ويأتى الى قصر الملذات فيظل فى حظ وانشراح حتى يصبح الصباح ، وصار يداوم على هذه العادة الى أن جاء يوم من ذات الأيام ، وبينما الملك يتقدم متنكرا من باب القصر واذ بالحارس يقف وينحنى تعظيما واجلالا ، فظهر الغضب وبان من عينى الملك وقال له : وهل عرفتنى ؟ فرد الحارس عليــه : من جهل سموك ما عاش . فأخرج الملك من جيبه سلاحا ناريا وصــوب الى قلب الحارس وأطلق فقتله . صاحبى راح هدرا وتيتمت عياله من بعده . هنا كانت الحظيرة الملكية الملأى بحيواناته المــأكولة فى عشاء ما بعد الجمــاع الملكى ، حيث كان يقدم له طهاته خروفا بكامله مذابا فى كأس من الذهب الخالص ليتسنى له مجابهة أعداء الوطن بمعدة ممتلئة ، هنا مبنى الاتحاد الاشتراكى العــربى ، مبنى ما بعد الثورة ، وحيث كانت الاجتمــاعات

الثورية المستمرة من أجل تطبيق المبادىء الستة بعد رحيل صاحب المحروسة على متن محروسته ، هنا مبنى الدفاع الشعبى المسلح ، وفرق الانقاذ ، واطفاء الحرائق التى كانوا يشعلونها ، وحيث قاموا بتركيب صفارتين للانذار المبكر تعلنان عن غارات الأعداء ، وهنا منطقة الخنادق التى تم حفرها — وساهمت فى بنائها — ليفر الناس اليها لحظة هجوم خاطف يشنه الأعداء وقد أصبحت ملجأ للضفادع والكلاب والقطط ومياه الصرف الصحى .

فى تجواله الأخير ، رأى العمارات الشاهقة مكان الخنادق فى زمن منحه معاشا باسمه مدى الحياة قدره عشرة جنيهات مصرية فقط لاغير ، كان يرى فى تجواله تحولات بولاق الدكرور الكبرى وفى عينيه كانت تومض التماعات طفل يرى العالم للمرة الأولى ، طفل ولد منذ ثمانين سنة ولم تصبه الشيخوخة بعد ، طفل ولد مصابا بفيروس فناء أمه ، حيث تفتحت عيناه للمرة الأولى على ساقى امرأة أبيه ، وحيث رأى العالم جملا بسنمين فاتحا فاه على وشك التهامه — جملى وهدية أبى الأولى لى — والذى ضرب حتى أوشك على الموت ولم يبك وأراد الانتقام وأخذ الثأر فكان ما كان ، وكان يا ما كان هناك ولد ماتت أمه لحظة ميلاده فربته امرأة أبيه حتى كبر قليلا وأنصت لحديث الراوى صاحب الربابة فعرف أن العالم مقسم

الى أربع جهات ، وأن الدنيا واسعة ، وما كوم الضبع الا قطرة في بحر محيط ، وأن ناسه يسدون عين الشمس ، وعلى الرباب سمع : قصة الأمير حمزة الشهير بحمزة العرب ــ كان يا ما كان كانت دولة الفرس من الدول العظيمة فى قديم الأيام ، قصة عنترة بن شداد العبسى أسد الأسود والصخر الجلمود ، سيرة الظاهر بيبرس : الملك العادل صاحب الفتوحات المشهورة ملك مصر والشام وقواد عساكره ومشاهير أبطاله مثل شيحة جمال الدين وأولاد اسماعيل وغيرهم من الفرسان وما جرى لهم من الحيل والأهوال • طفل يرى نفسه ماسكا جريدته ممتطيا حصانا بوصيا خائضا المعارك منتصرا على أعدائه الخرافيين ومسربلا بدماء انتصاره الوهمى ، طفل يخلق سعد زغلوله حيث يراه ممتطيا حصانه الخشبى وخلفه الشعب يهتف بسقوط الاحتلال ، ثورته التى سمع عنها وعرف خبرها من فم رواته ، رواة أساطير الوطن ، وفيما بعد سوف يحقق حلمه بالوقوف منشدا فى سرادقات الليالى والأفراح قصصه التى عشقها حتى حفظها : قصة الأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها فى بلاد النصارى ، قصة حبيب بن مالك وما حصل لبنته السطيحة على يد النبى ، ساره والخليل ، هاجر واسماعيل . أيوب لما ابتلى ، الحجاج بن يوسف الثقفى مع الغلام زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قصة الغزالة والجمل ، واليتيم المظلوم ، وعامر اليهودى •

فى تغريبته الأولى هجر بلدته بحثا عن مكان يصلح مخبأ لعقاب أبوى صارم بعد أن تواترت الأخبار عن قيامه بهجومه الليلى الخاطف على غيطان القطن ليبيع ما جمعه ليلا فى سوق القرية نهـارا من أجل شراء حلوى طحينية ورغيف من عيش البنادر ، وحين تم العثور عليه مقرفصا داخل ممر مائى جاف ، تم تعليقه من رجليه على فرع شجرة جميز سنة كاملة ـ هكذا ظن ـ فكان يسمع عياطه على مسيرة يوم ، حتى تم رفع العقاب الأبوى ففاحت منه رائحة نتنة وقد تغير لونه الى الرمادى بعد أن غطاه براز طيور أبى قردان .

الغربة داء ودواء ، حدث نفسه وهو يوطنها على خوض مغامرته الكبرى صوب المدن الكبرى وبلاد الأحلام ، فى تغريبته الثانية ، كانت بدايات فتوته قد ظهرت ، ففى رؤاه الليلية كان ثمة حيوان خرافى يتشكل فى هيئة امرأة كل ما يميزها غور واسع عميق أشد اظلاما من ليل كوم الضبع ، فى معركته الأولى والتى ظهرت آثارها فوق جلبابه صباحا ، بدا أنه أكثر جرأة على خوض معـاركه الوهميـة ، وكان قد تخلص نهائيا من طفولته ، قال أجرب حظى وأمشى سواحا فى بلاد الله ، حمل عصا ترحاله ورحل ، عصا غربته التى ظلت تلازمه كظله ، والتى رقص بها تحت أنظار الناس على أنغام الغاب لحظة سماعه حكما ببراءته من جريمـة ما فعلها قط ، سرقة بساطه السحرى الذى

اشتراه ليروض به المدن الكبرى ، ابن الناس وشى بى لما رأى سجادة صلاة فى يدى ، وكان يظنها ما ذكر فى محضر الشرطة من سرقة بساط صنعه بلاد العجم . سافر مصحوبا بفقر ودعوات أب وغبشة الفجر الأولى وصرة قماش بها محلبة وأقراص عيش وقطع جبن قديم سابحة فى مش : من أين والى أين الطريق فى بلاد ليس بها صاحب ولا أنيس ؟

لو كان علمى بأن الوعد مدارى ، ما كنت أسافر ولا أطلع قط من دارى . ردد موالا قديما فأحس شجنا خفيا ، وحن الى شجرة جميز وحيدة كان يرتكن اليها ، والى ساقيته النواحة ، أبوه ، صاحب الرباب ، ورائحة بوله المنهمر فى الرطش ، رأى نفسه يعيش أول صباحات المدن ، ورأى اختفاء الشمس خلف العمائر الشاهقة فتعجب لذلك ، فى تجواله للبحث عن عمل شاهد حى الخارطة القديمة — والتى سوف يراها فيما بعد تتحول أمام عينيه الى بين السرايات — بعمائر فخمة وجنائن الورد والموز وتعاريش العنب ، رأى الدقى القديم بعششه الصفيح وحقول القمح الممتدة حتى بولاق الدكرور ، عزبة الورد وشارع داير الناحية . وسألت نفسى : يا واد تعرف تعيش هنا ، ولا ترجع لبلدك وخيبة الأمل راكبة جمل ؟ . فيما بعد سوف يذكر كيف اتخذ قراره بتعلم صنعه لازمته حتى الموت ، بناء ، أول صفعة تلقاها من المعلم لخطأ البدايات

الأولى ، تعلم رص المدماك فوق الآخر ، أن يفرد خيطا ويقيم الميزان ويصنع سـقالة ، على سقالته رأى الموت بعينيه ذات صباح بينما كان يهم بتركيب عتب مسلح حين انكسر فجـأة لوح الخشب الواقف عليه ، وقع وانحذف العتب بعيدا عنه ، لحظتها قرر نذرا لابن بنت النبى ، اشترى رطلين من اللحم وأرزا وأرغفة ، قام بتوزيعه على باب المقام ، حجرته الصغيرة الضيقة بشارع داير الناحية فى الدقى القديم شراؤه كل ما يلزم عيشة عازب يتعذب بوحدته وانهزام أبطـاله الخرافيين أمـام عينيه ، عودته الأولى لكوم الضبع ، شراؤه أول جلباب من الصـوف الأنجورى وعبـاءة كشميرية وحذاء بنعل كرب ، اعطاؤه للوالد جنيها كاملا من عرق جبينه مفاتحته له فى أمر الزواج بعد رؤيته لولده الكسيب •

قبل أيام من رحيله ، وفى مواجهة سرير تغريبته الأخيرة ، رنا الى الحائط مستعرضا صوره المعلقة ، صور دنياه التى عاشها طولا وعرضـا وما ارتوى ـ هذه صورتى : فى شبابه ، حيث كان متكئا على حائط فرغ توا من بنائه ، يده اليمنى قابضـة على مسطرينه ، أما الأخرى فتحمل قبعـة من قمـاش محزمة ومزينة بكبسولات نحاس ، على جبينه حبات عرق لامعة فى شمس الظهيرة • وصورة لى : جالسا فوق شيكارة أسمنت على الأرض ، أمامه ورقة عليها قطعة حلوى طحينية ورغيفان ، حوله

قوالب طوب متناثرة وحائط لم يكتمل بناؤه بعد • وصـــورة لى على كوبرى قصر النيـــل ، خلفـــه ينتصب ســـبعان من الجرانيت الأسود ، ذراعه ملتفة حول كتف زوجته الثانية الشابة وكانا فى أســـبوع زواجهما الأول • وهذه صورتى وأنا : بين أطفاله الثمانية من زوجته الأولى ــ زوجة عزى وصباى ــ بجانبه تجلس أم الترقيدة الثانيـــة والتى فيما بعد سوف تنجب له ولدين وبنتين يقاسمونه شيخوخته • وصورة ــ صورتى لمـــا طلبونى للقرعة عام ٤٨ ، ووجدوا أنه تخطى سن التجنيد فعاد هو فقط وقد نجا من رائحة الحرب الفاسدة التى أطلقهـــا أعداء الوطن • صورة : بملابس الاحرام فى رحلته الوحيـــدة خارج دنياه الى بلاد الله ، ورجوعه حاملا فى رقبته عنقودا من تين الحجـــاز وبطانيـــة ذات مربعات زاهيـــة ولقب حاج ــ وأخرى : واقفا أمام بيته محييا مستقبليه ، خلفه تشق سفينة كبيرة بثلاثة أدوار بحـــار الطوب الأحمر المطرطش ، فوقهـــا تحلق طائرة طيارة رسم فوق مؤخرتهـــا علم مصرى له ثلاث نجمات يختبئن فى حضن هلال ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق وجملا بسنمين ، حج مبرور وذنب مغفور ، كل ســـنة بعودة يا حاج ، وعنقودان من كهارب الزينة بألوان مخلطـــة على واجهة البيت ، حديثه عن الصفا والمروة ورمى الجمرات ورؤيته الكعبة بعينه المجردة •

فى صورته الأخيرة نائما على فراش موته بدا شاحبا ، وكان قد رجع توا من صلاة عيده الأخير لما أحس بسرطانه يهزمه ، معركته الأخيرة مع عدو حياته وقد ظلت قائمة مدة سنة كاملة ، كان يقبض على كبده المتهرىء بكلتا يديه مهدهدا سرطانه الحى فينام قليلا بين يديه ، مفسحا له فرصة العيش بضع ساعات دون ألم .

كان الليل على وشك لما هب من نومه فزعا وقال اللهم اجعله خيرا ، ثم أكمل : جاءت لتأخذنى وحدق فينا فتساءلنا من هى فنظر الينا وقال : أمكم . ونظر الى اخوتنا وقال : زوجة أبيكم . فقلنا فى نفس واحد : وهل أخذتك ؟ . هز رأسه ووضعها بين راحتيه وسكت فلم نتكلم نحن ، عاد بنظره الينا وتساءل : يعنى حاموت ؟ ولما لم يتلق اجابة أكمل : من يعرف، ما يمكن ربنا يكرمنى وأقدر أقف على حيلى مرة تانية .

توهم عين الخــلود

حدث الراوى فقال :

هــل أجد من هو ذاكرى بعد فنــائى كذكرى موتاى ؟ ترقرقت العبرات فى عينى ، وربابتى كلت ، وأنامــلى ملت ، وما بين المنصة التى أعتليها ، وجمهورى الذى يسمع من فمى قصص موتاى ، مرت أزمنة ، وتعاقبت وجوه كانت بيننا والله ذات يوم ، وبينما أنا كذلك أتفكر ، اذ رحت فى غفوة ، سنة من نوم ، وتوهمت نفسى فى الظلمة التى خلقها الله ، معى صاحبان أحدهما ضل طريقه ومشى فى سكة ، أما أنا وصاحبى الآخر الجليل ، فمشينا فى سكة أخرى ، لم يقل لى هــذا فراق بينى وبينك ، لا لم يقل ، ولم يقل انك لن تستطيع معى صبرا ، فلم يكن أجلد منى صبرا على صحبته ومعاينة غرائب أفعاله ، وكنا سمعنا ان الله وضع فى الأرض ظلمة ، وفى تلك الظلمة خلق عين ماء سماها عين الحيــاة ، فمن شرب منها شربة لا يمسسه الموت الى يوم القيامة ، فتوكلنا على الحى الذى لا يموت ،

ودخلنا فى ظلمــة شملتنا ، وخضنا فى معامعها حتى أشرفنا على واد أخضر ، تتوسطه عين ماء ، فعرفنا انه ما نبحث عنه ، وان هذه الأرض لم تطأها قدم انسان من قبل ، خلعنا ثوبينا ونزلنا البركة المباركة ، وكنا نعب المــاء عبا ، فلم نشرب أحلى من مائها ، اغتسلنا وتوضأنا وسجدنا شــكرا لله رب العــالمين ، وبينما أنا كذلك اذ تنبهت من غفوتى فتنهدت ، وشددت القوس والوتر وغيرت المقام ، وقلت والنشوة تسرى فى لسانى هذين البيتين :

لا تأســفن على الدنيــا وزينتهــا
وأرح فــؤادك من هم ومن حزن

وانظرالى من حوى الدنيــا بأجمعها
هل راح منها بغير القطن والكفن

ثم أصلحت وانشدت :

اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين ، والخضرة عاشت وشافت ، ولها حكاية غريبة ، وأمور مطربة عجيبة ، وهى ضلع فى روايتى ، وها أنا ذا أبدأ حكايتى ــ فانتبهوا :

وقائع موت الخضرة

« يا مرحبا الليلة ـ ياما القبر يقولك ـ يا مرحبا
الليلة نورت قبرك وعتمت على العيلة » .

(عدودة مصرية)



في اليوم الموعود من ساعة ليل شتائية ماتت الخضرة أم جدى وست أمى لما جاءت من مشوارها اليومى وفرطحت على حصير الأرض وماتت •

وبموت الخضرة صارت أمى يتيمة الست والجد ومن أجل ذلك بكت مر البكاء على آخر الناس الطيبين الذين عاشوا قدر ما عاشوا لا أحد سمع لهم حسا ولسانهم كان ينقط شهدا ولم ينطقوا بالعيبة أبدا وما الواحد منا الا سيرة — هكذا رثت أمى ستها لما سمعت الخبر المشئوم فجاءت على « ملا » وشها من بولاق الدكرور حتى كوم الضبع بليل فى ظرف ساعة زمانية وبين عينيها أن الموت أشد من ضرب بالسيوف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وأن أهونه كما الشوكة فى الصوف فهل تخرج الشوكة من الصوف الا بصوف كما قال امام المسجد المجاور لبيتنا ظهر يوم جمعة ! فبكت أمى لحديث الامام وبكيت أنا لبكاء الغالية •

والذى حدث حدث فجأة ، فقد كانت الساعة ساعة ليل ،

وكنا نجلس فى المندرة الكبيرة التى بناها جدى الكبير فى الزمن الأول طوبة من فضة وطوبة من ذهب ، فلما جاء الطوفان مات من مات وفر من فر وانهدمت بعد ذلك وبنيت بالطوب النيىء حتى وقتنا هذا ، فكان يجلس جدى وخالى وامرأة خالى حول المنقد عليه القوالح والعة ودخانها يملأ المندرة ، وعزال الشاى جنب خالى ، حين دخلت علينا الخضرة بفرعها الطويل المائل للأمام ، لم تلتفت الى أحد ، ولم تتحدث الى أحد ، بل اتجهت مباشرة الى الحصير بجانبى وجلست ، ثم أنها مددت رجليها وفردت جسدها وقالتها طويلة ممطوطة فسمعها الجميع : أنا تعبانه ، نفسى أنام • ثم أنها أغمضت عينيها وماتت ، وخالى كان يصب الشاى لما التفت اليها وقال : بصوا • فرأينا وتحقق الجميع من موتها ، وركن خالى عدة الشاى على جنب وقال شاى النيلة والسخام وسبل عينيها ولقنها الشهادتين وأخرج منديله طبقه ووضعه حول ذقنها ورأسها وربطه فصوتت امرأة خالى لما رأته انتهى ، وبكى جدى وقال انا لله وانا اليه راجعون ، أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون يا أم • والتمت الناس وذاع خبر موت الخضرة زوجة عفيفى أبو راضى الراحل العظيم والعائش من أعمار الخلق مائة سنة وعشرين ونصف سنة وبانى مقام سيدى عبد الله الضبعى صاحب المعجزات فى الزمن الفائت ، عاشها يأكل من عمل يده حيث كان يعمل قصابا وتمنى أن يموت على فراشه متكئا

فنالها • ودار النجابون حول كوم الضبع يطبلون ويســمعون الخلق : اليوم ماتت الكريمة بنت الأكرمين زوجة ضمين صاحب المقام ، والحاضر يعلم الغائب • فهجت الناس وضجت وجاءت الركائب من كل البلاد للوداع الأخير •

والخضرة العارفة بقصص الأنبياء وأساطير الأولين ، والتى ما كانت تمل روايتها لنا فى قاعتها المظلمة والتى ليس بها سوى فرن كبير بحجم القاعة كان يحمى أول الليل وتنام عليه فى زمن عفيفى أبو راضى زوجها الذى رحل وهى صغيرة فلم تنجب فى حياته ســوى خمس بطون فقط ، فأقسمت ألا يحمى الفرن وتنام عليه بعد رحيل الغالى الذى تركها ، قطع بها هى فقط وتركها وحيدة بعد أن تزوج عياله وعيالها فكانت تذهب الى مشوارها اليومى آخذة معها فى كم جلبابها الأســود المتآكل رغيفين من عيش « البتاو » وفى جيب سيالتها تلقيمــة ســكر سنترافيش وشاى ناشف ، وكان البعض يراها تذهب الى الترب وتشوح بيدها جاهرة بالسلام ، وأمام تربة عفيفى تقرفص وتظل تبكيه قدر ساعة زمانية حتى يحضر اليها فيأكلان سويا ويشربان الشاى المعمول على عظــام الموتى المشتعلة ، ثم أنها بعد ذلك تتودع منه وتتوجه الى البحر حيث مقام مولانا عبد الله الضبعى الذى بناه عفيفى قبل أن يفارق فتجلس هنــاك عند شاطىء البحر تتحدث الى خلق لا أجد يراهم ســواها ومنهم الشيخ عبد الله الضبعى ذات نفسه الذى كبش من كنوز البحر وأعطاها

فأخذت ما تيسر حمله وغلا ثمنه وخبأته فى الفرن داخل القاعة التى لم يدخلها أحد سوانا فكانت تأمرنا بالجلوس دون حركة ، وحتى لا نفكر فى البحث عن كنزها المخبوء ، كانت تجىء بالمنقد وتشعل عيدان القطن الجافة وتعمل عليها الشاى الثقيل وتقول وهى تنفخ فى النار وتشن وتمسح أنفها فى كمها المبلول دائما : أقول لكم على مسألة الجدع فيكم يعرفها ، ليه ربنا سمى عزرائيل عزرائيل ؟

وكنا نعرف هذه المسألة وغيرها مما كانت تحكيه لنا ، وكنا نخاف أن تغضب فنقول فى نفس واحد لا نعرف يا ست . وكانت هى تفرح لذلك وتنظر الينا من تحت لتحت وعيناها تبرقان وأنفها الطويل المقوس يتلوى مع دخان الولعة ويرسم فى عيوننا أشكالا وتقول : لأن أبانا آدم لما أراد ربنا أن يخلقه أرسل جبريل يحضر له حبة تراب من الأرض ، فزعلت من سيدنا جبريل وأخذت على خاطرها وحلفته بربه فرجع وما أخذ شيئا ، فأرسل سيدنا ميكائيل فعملت معه مثلما عملت مع جبريل ، فأرسل أحد الملائكة فلما قالت له ذلك زغدها بحربته فى بطنها وكبش من ترابها غصب عنها ورجع الى ربه فسماه عزرائيل لأنه لا يعزر أحدا وجعله ملاكا للموت ، وهذه وظيفته من ساعتها الى أبد الآبدين ، ليست له شغلة سوى أن يزغد الناس بحربته فيموتون . وتتساقط الدموع من عينى الخضرة

وتتطلع الينا : هل رأى أحدكم سيدكم عفيفى ؟ زغده القاسى بحربته وماعذره كان ساعتها نائما على حجرى هذا ، وتشير الى حجرها وتبكى وتشن وجسدها الهزيل يهتز ولا تسكت الا اذا رأتنا نخرج ما معنا من قروش فنعطيها لها فتضحك وتمسح وشها بذيل جلبابها وتقوم فجأة تشوح بيدها : أما أقوم أشترى تلقيمة شاى وسكر أحسن زمان سيدكم ينتظرنى على نار .

والخضرة ماتت حين ذهبت الى الترب وجلست فى انتظار عفيفى فلم يطلع لها كعادته فايقنت أنها لن تراه مرة ثانية بعد الآن ، هو الذى عاش معها حينا من الدهر ما قال لها أف قط ولا نهرها بل ظل يسمعها قولا جميلا فأنجبت له خمس بطون على التوالى وحمت له الفرن كل ليلة حتى لحظة موته لما كان نائما على حجرها وكان يضغط على عصب وركها بكفه الكبيرة فسمعت شهقته ورأته يرنو الى الأعلى متتبعا روحه التى فارقت جسده توا فقامت أشعلت وابور الجاز سخنت عليه ماء ، وخلعت هدومه وحمته وألبسته جلابية الصوف الأنجورى وعباءته وشال العياقة ، أشياءه التى ما كان يرتديها الا فى أمر جلل ، فلما أتمت ذلك أنامته على ظهره وفردت عليه الحرام الصوف وقامت دارت على بيوت أولاده فى ساعات الصبح الأولى تخبرهم بموت أبيهم ، لكنها أقسمت أن عفيفى يجيئها كل ليلة بعد

أن تنام الخلق ، ويظل معها حتى آذان الفجر ، ومن أجل ذلك هى تعيش حتى الآن ، هـذا الكلام قالته امرأة خالى لما كانت تحكى لخالى فقال لها هس يا مرة اياك اسمعك تقولى هـذا الكلام لأحد ، بلا فضائح ، فسكتت وهى تضرب كفا على كف ، وقال خالى لامرأته همسا : أقوم أدعبس عندها ، وقلت انه ذهب للبحث عن الكنز الذى تخبئه فى قاعتها ، لكنـه عاد سريعا وقـال فى غضب : الدنيا بتشتى قومى ولعى قوالح ، كبس على النوم فنمت ، ولكنى قمت مفزوعا على صـوت بجانبى ، تلفت حولى فلم أجد غيرى وصوت الريح وهى تضرب شباك المندرة ، وضـوء اللمبة الصاروخ الموضوعة على الحائط تكاد تنطفىء ، لكن ضوءها يتراقص فرأيت الخضرة وعفيفى يتحدثان ، ورأيت الخضرة تشير الى فجريت الى الباب لأفتحه فوجدته مقفلا ، ظللت أخبط على الباب حتى تعبت فقعدت جنب الباب ونظرت ورائى ، كان ضـوء اللمبة الصاروخ يرقص على وش ستى الخضرة ، وكنت أنتفض وأبكى حين سمعت صرير مفتاح الباب فابتعدت عنه قليلا فانفتح ، ورأيت أمى .

توهم صفاته

حدث الراوى فقال :

توهمت صفاته ، هو هازم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب البيوت والدور ومعمر القبور وميتم الأطفال ومرمل النساء ومفجع الأحباب ومغلق الأبواب ومسود الأعتاب ، هو ملك الموت ، موتاى يعرفونه ، أما الأحياء ، فلهم أشواق عجيبة ٠

توهمت انى أرى ملكا عظيم الخلقة والمنظر ، قد بلغت قدماه تخوم الأرض السابعة ، جالسا على كرسى من نور ، والملائكة بين يديه ، عن يمينه لوح ، وعن شماله شجرة عظيمة ، كثيرة الأوراق ، على كل ورقة اسم ابن لآدم ، فاذا ما قرب الأجل ، اصفرت الورقة التى عليها اسم صاحبها ، وسقطت على باب رزقه ، ويسود اسمه فى اللوح ، فهو اذن مقبوض ، فينظر اليه نظرة يرتعد منها جسده ، ويتوعك قلبه من الهيبة ، فيقع فى الفراش ، فيرسل اليه أربعين من الملائكة يعالجون روحه،

فينزعونها من العروق والعصب واللحم والدم ، ويقبضونها من رءوس أظافره حتى تصل الى الركب ، ثم يريحون الميت ساعة ، ثم يجذبونها الى السرة ، ثم يريحونه ساعة ، ثم يجذبونها الى الحلقوم فتقع فى الغرغرة ، وتسل كما تسل الشعرة من العجين ، ويقبضها وفى يده حربتـــان : واحـــدة من نور ، وأخرى من سخط . اللهم احفظنا ، كأنى ما تبت والله ، فما أكاد انتهى من توهم صـــعب ، حتى أدخـــل فى أصـــعب منه ، وكأن موتاى لا ينتهون ، فما تنتهى سيرة ، حتى تسلمنى نهايتها لسيرة أخرى جديدة ، وهـــكذا ، سلسال أعرف أنه لن ينتهى الا بموتى ، فربابتى على كتفى ، والقوس فى يدى ، ولسانى لا يتوقف ، آه لسانى ، هل تصـــدقون أن صاحبى قتله لسان ، أســـمع من يقول : وكيف كان ذلك ؟ صلوا على من يشفع فيكم :

العمـــال

« كان عندنا منه ، كان عندنا منه وموتة الرجال
هى الخراب كله » .

(عدودة مصرية)

العمـــال (*)

وقت القضاء يعمى البصر ، والرجل تحوم حوله ذبابة زرقاء لا تنصرف ليلا أو نهارا ، وهو أحس فى قلبه شيئا لم يرد البوح به حتى لنفسه ، ورأى رؤيتين فى يومين متتاليين ، واحدة لأمه وأخرى لأبيه ، لهما مدة لم يأتياه فى منامه ، كان وضوحهما حيا جليا كأنهما حيان يرزقان ، لم يطلبا منه سوى مطلب واحد ، ودون أن يحدثاه ، فقط أشارا الى جلبابه ، ولما لم يفهم ما يريدانه ، أخذ كل منهما بطرف جلبابه يريدان انتزاعه ، هى وهو يريدان جلبابه ، يا حلاوة . حين صحا من نومه ، تساءل كيف يتفق الميتان ؟ وجز على أسنانه وضرب قبضة يده اليمين فى كف يده الشمال ، وحدث نفسه بغضب : لو انهما انصرفا دون أن يأخذاه ، لكانت هناك فرصة ، ولكن قضى الأمر ، وأصبح لديه دلائل على ما سوف يحدث ، أحس برعشة

(*) العمال – بفتح العين وتشديد الميم – هو اللسان فى الموروث الشعبى ؛ ويقال أن الميت يفنى جسده الا لسانه ، فانه يتيبس ويصبح مدببا كسن الابرة ، وانه اذا لمسه انسان يموت فى الحال ، لذلك يقولون : حاسب من العمال ، لمن يدخل المقابر .

تملك كل جسده الفارع وانكمش فى بعضه وفكر : هل هو خائف من الموت ؟ هو الذى قضى عمره مع الأموات ، يفتح الترب فى عز الليل بلا خوف ، ويتلقى الموتى بيديه ويرقـدهم رقدتهم الأخيرة كاشفا وجوههم وملقيا آخر نظرة ، ما الذى يخيفه الآن اذن ، هل هى الذبابة الزرقاء التى ما فارقته منذ ليلتين بطنينها العالى ؟ أم هى وحدته التى لازمتـه فى عشته الخوص دون أنيس ولا ونيس بعد أن صار زواجه من فتـاة تنجب له وتملأ عليه وحدته حلما يصعب تحقيقه ، فتيات البلد ونساؤها يخفن منه ، فكيف يرتضينه زوجا ؟ ومن هذه التى تتزوج حفارا للقبور ؟ تكور على نفسه ودفن رأسـه بين ركبتيه وبلع ريقه الناشف بصـوت سمعه ، ووقف فجأة صارخا وملوحا بقبضته للذبابة الزرقاء الطنـانة : ابعدى عنى يا شيخـة الله لا يسيئك ، أمنتك بأمانة النبى تبعدى عنى ، حد الله ما بينى وما بينك . لكنها ما ابتعدت ، بل زادت طنينا ، وتسلل النهار من بين أعواد البوص فتذكر أن له ثلاث ليال لم يخرج من عشته ، وأنه لم يضـع لقمة فى جوفه ولم ينم ، وسمع خبطا على الباب ، وصوتا ينادى عليه قوم افتح الترب وجهزها . رد بصوت ضعيف : حاضر ، وقام متثاقلا يجر رجليه حاملا على كتفه قفة وفأسا متجها الى الترب ، فى طريقه نظر خلفه فلمح الذبابة الزرقاء الكبيرة آتية من بعيد وقد لمعت زرقتها شفافة نقية فى شمس الصباح ، ولمـا اقتربت منه حطت فجأة على رأسه ،

رفع يده وهم بامساكها لكنها فرت وجرت أمامه ، حين وصل بدأ فى الحفر ولم يسأل نفسه من الذى مات ، لكنــه أحس هدوءا واطمئنانا فى قلبه لم يحس بهما من قبل وكان يفتح باب التربة فظهرت ذبابته الزرقاء ومرقت من خلف أذنه كالســهم الى داخل التربة من خــلال الفتحة المواربة للبــاب ، وشــم رائحــة الموت وأخــذ نفســا عميقــا ودخــل ، بحث عن الذبابــة فى عتمــة القبر لكنهــا فص ملح وداب ، لم بعض العظام المبعثرة وكومها على جنب ، وأخذ يسوى الأرض الرملية المرطبة وسور حدودا وهمية للحد القادم الجديد ، وتحت قدمه كان هناك شيء مدبب يبرز بروزا خفيفا لم ينتبه اليه ، وكان على وشك الانتهاء لمــا خطا بقدمه فوق السن المدبب ، وأحس لسعة خفيفة وسخونة تجتاحه ، وعلى الضوء الواهن الداخل من فتحة الباب نظر تحت قدمه فرآه واضحا جليا ، وضرب راحة يده فى جبهته ، وخرجت من صــدره : آه طويلة ، ومات ..

الراوى بلغ تعبه منتهاه ، أحس بالعطب يدب فى ساقيه فجلس ، وضع ربابته فى حجره وبانت أصابعه وقد ماتت على القوس ففردها ، وكان يصرخ فى الجمع المحيط به أحاطة السواد بالبياض ، أو النيـل بالبـلاد : ماذا أفعل ؟ إن موتاى يا ربى لا ينتهون ، وروايتى تبغى اكتمالها ، وجعبتى ملآنـة ، وقلبى أمضـه الموت ، وأثقله الحزن ، ونفسى مضعضعة ، وهـؤلاء محظوظون ، فقد وجدوا من يروى قصصهم فأحيوا بعد موتهم ، أما أنا ، فمن أين لى براو مثلى زحمة المصاب وأثقله الفقد ، يتبجبح فى حكايتى بعد رحيلى ــ اللهم لا اعتراض .

حين وصل الراوى لهذا الحد فى سرحة نفسه المحزونة ، كاد يفضها سيرة ، ويصرف الجمع المتحلق حوله فى شـوق لسماعه ، لكنه لم يفعل ، هو الذى نذر نفسه لموتاه ، فشد حيله ، وقام واقفا بعد جلسة استراحة ، ومرر قوسه على الوتر المشدود

شدا جيدا فأصـــدر لحنا حزينا يقول مطلعه أن غرام المحبين يفضى الى موات الروح اذا لم يتحقق فى التمام الشمل بعد هجر وفراق ، بالبوس والعنـــاق ، والتفاف الساق بالساق ، كما قال الشاعر فى هذا المعنى :

ما صور الرحمن أعظم منظرا   من عاشقين على فراش واحد

ثم قال : وليس هذا بأعجب من قصة عزيز ، وتونة التى أحبها عزيز ، وكيف فرقت بينهما تصاريف الزمان ، وهو ما سوف نحكى عليه ، والعاشق فى جمال النبى يصلى عليه :

شــــكاية

حكاية عزيز وحمـــار عزيز وديكه الشركسى كذا
تونة الجميلة التى احبهـا عزيز وكل ما نصـــل اليه
نحكى عليه والعاشق فى جمال النبى يصلى عليه .

« غابوا الحبايب بقى لهم عام
وادى التــانى والقلب مشغول بهم
وقليل رجوعهم تانى » .

(عدودة مصرية)

(يا سادة) والكلام دون نقص أو زيادة ـــ أننا رأينا أمه تجرى جرى الوحوش بين الساقية والطابق ، تقف بين شوطين ، ثم أنها تذرف دمعتين وتنادى بالصـــوت الحيانى : يا ولداه عليك وعلى شبابك يا عزيز يا تاج رأس أمك وخلانك وابن بطنى اليتيم •

وكنا نظن فى البداية أنه عفريت عزيز قد ظهر وبان ، وكنا نقف على جسر طابق الديابة نترقب ظهوره ، وما عرفنـــا أنه عفريت أمه غير بعد حين ، فزين النواحى ولى زمانه وما عـــاد يجىء ، بموته قصم ظهر رفاقه وشـــالوا النيلة من بعده ، كمن يعرف أنه راحل كان معنا قبل غربته الأخيرة بيوم ، أخذ يجمع شملنا ووقف وسطنا نحن رفاق صباه وقال على الرباب : لو كان علمى بأن الوعد مدارى •• ما كنت أسافر ولا أطلع قط من دارى • وأرضى بقليلى وأقول للقلب ما تدارى • قالها على الرباب فضحكنا ، وقالها على الأرغول فتمألس البعض على البعض ، وفى النهاية أنشدها على ربابته التى اشتراها بعشرة

كتاكيت ليغنى لتونة الجميلة فى غدوه ورواحـه ، قالها على الرباب فأدمعت الأعين من هيبة ما قال ، وكأن ــ سبحان الله ــ سـيدنا عبد الرحمن يرفرف على لسـانه ، وكأنه ــ لا اله الا الله ــ كان يعلم موعد قيامته ، فأخذنا نطمئنه بالقول اللين حينا والقول الناشف حينا ، لكنـه كان أدرى منا بحاله وسبقنا ودخل سكة الذى يروح ولا يرجع ، وبين غمضة عين واتتباهتها، سقط الغـالى فى الساقية هو وحماره ، رفيق سـفره الدائم وصاحب غربته الطويلة والذى كان يعزه معزة الأخ والصديق والذى حدثه ذات يوم بينما هو فوق متنه : أنت وأمى أغلى حبيبين فى دنيتى ، ولمـا خانته دموعه نطق فى وجد : الأم افتكرها الرب وحصلت الراحل أبى ، أما أنت فيجعل يومى قبل يومك ، لا أتصور الدنيـا من غيرك ، آخر الأحبة أنت • وفهم الحمار مغزى صاحبه ، ويقسم عزيز أنه سمع لغة حماره ، وأنه عرفها ، وأنه صار يحدثه مقدار ساعة زمانية ، يقول عزيز : تحادثنـا مقدار ساعة ، كشف لى الظـاهر والباطن ، ما مضى وما هو آت ، ولم يقل لى كلمة سوء قط ، فهو من قبل حمار أبى ، وهو من بعد حمارى ، فله منى ألف مليون سلام •

بالدمع جودى يا عين على عزيز ، لم يكن يدرى أن ساعته حانت ، وأنه فى هذا اليوم مفارق أحبته ، فمنذ أن صحا من نومه وعينه لا تهدأ عن الرف ، ريق اصبعه بلعابه ومرره على

عينه الشمال وقال : اللهم اجعله خيرا ، لكنها لم تكف وتشاءم عزيز جدا ، قـام وجهز لنفسه فطوره الأبدى : نصف رغيف مقـدد ، طبق به بعض الحليب مزج الخبز الناشـف بالحليب وسمى وأكل ، تلفت حواليه فلمح صورة أمه : عجوز طيبة تلف رأسها بطرحة سوداء ظلت تصاحبها حتى جاء أجلها ، ورأى على جانب الصـورة اليمين وشاح الموت الأسـود فقرأ الفاتحـة لأمواته وأموات الناس ، وتناول ملعقة فى فمه من مزيج ما بعد موت الأم ، فى الأيام الفائتة ، كان يصحو براحته ، وكانت تعد له فطورا ثريا مكونا من عسل النحل والفطير المشلتت وقطعـة جبن قديمة تعرف أنه يحبها ، وبراد الشاى كان يغلى على النار لحين انتهائه من فطوره ، وكان يشم رائحـة الشاى ممزوجة برائحة سمن الفطير السخن ، وكانت تعبق بجو البيت رائحة دسمة ، وصـوت الأم ممزوجا بصوصـوة الكتاكيت : كل يا ولدى ، مطرح ما يسرى يمرى على بدنك الغـالى ، الهى تكسب وتربح ويحبب فيك خلقه يا عزيز يابن بطنى • فرغ عزيز من فطوره وقام الى حماره فأخذ يجهزه لرحلة شتائه وصيفه ، ربت على ظهره وسرح ببصره الى ما بعد الحمار وهو يناجيه : يا آخر الأحبة ، رائحة أبى أشمها فيك ، أبى الذى لم أره قط أتلمسه فيك ألم تكن رفيق كهولته ، من أجل ذلك أحبك حبى لأبى الذى لم أره •

تنهد عزيز وشال قفص الكتاكيت وربطه على ظهر الحمار ،
كل ما ورثه عن أبيه قفص به بعض الكتاكيت ، وحمار عجوز
أعرج يتمنى عزيز أن يرد له الجميل ويسـاعده على اجتيـاز
شيخوخته بسلام وبيت معتم له رائحة قديمة تذكره دائما بأيام
الآحاد ، وأم كان الناس ينادون عليها : يا أم عزيزة ، فتفرح
هى لذلك وتنظر اليه وتتمتم : اسم النبى حارسك وصاينك ،
قلبى وربى راضيان عنك ليوم الدين ، وافتكرها الله وانقطع
النداء • خرج عزيز وساق حماره وراءه ، ووراءه سمع صوصوة
الكتاكيت فانشرح قلبه ونطق لسانه فغنى على الرباب ــ ما كان
يدرى يا ولداه ــ أغنية الكتاكيت العجيبة ، فتصوصو كثيرا
جدا ويفرح عزيز لأن الكتاكيت تحب صوته وتعرفه ، ويغنى
فتصوصو ويضحك حتى يشرق فينطق بالشهادتين ويتساءل :
من يذكر سيرتى الآن • وهو لا يدرى أن سيدنا عبد الرحمن
المـلاك قد ذكره ، وأنه ترك سـماءه منذ حين منتظرا اياه عند
الساقية ماسكا قضيب الموت ذا الشعب الثلاث هادمة اللذات
ومفرقة الجماعات ، غمز صاحبه فأخذ يبرطع فى أرض الله الواسعة
عارفا طريق صاحبه الذى حمله على ظهره عشرين سنة الا شهرين
ويومين وما ضل طريقه قط ، ويذكر عزيز : أن البداية كانت
صعبة ، وأن أباه تركه الا من أم يحبها حبا جما ، وحمار يحبه
محبة الأخ والصاحب ، وبضع كتاكيت وزبائن يعرفون أصله
وفصله ، وتعاقب الفصول الأربعة ، وخسوف الشمس وكسوف

القمر من معلم خمسة رابع بمدرسة جمال عبد الناصر المشتركة ، وليال شتائية غائمه لا يضيعها ســوى أن يلم كتاكيته حواليه ويشعل الباجور السكاتى الموروث ، ويفرد كفه الملآنة بحبات البرغل فتلتم الكتاكيت على يده وتصوصو وهى تلتقط الحب ، ويكوم ساقيه فى صدره وينام • مر على زبائنــه ، باع كل كتاكيتــه الا اثنين ، باس كف يده ظاهرها وما بطن وقــال : نحمده ، يرزق الدودة فى بطن حجر ، فكر أن يشترى كميــة أكبر من الكتاكيت لأنها لم تكف زبائنه ، فعلى الرغم من اننا فى موســم التوت حيث الكتاكيت تأكل وتموت ، الا عزيز ، فكتاكيته ما كانت تموت بل انها كانت تعيش فى هــذا الموسم لتصبح فراخا وديوكا ــ يقول عزيز ــ تقول الوالدة رحمها الله تعظنى : أبوك عاش قدر ما عاش لم يمت منه كتكوت ، كانت أطفاله ، وكانت تملأ علينا البيت ، وكان يحبها كما يحبــك يا عزيز ، احبها أنت أيضا تحبك وتكبر من أجلك وأجل خاطرك• ولكن ما باليد حيلة ، ســوف يشترى على قــدر ماله ، غمز صاحبه : ارجع بنا يا عم ، فتوجه الحمار الى الطريق الصحيح وبدأ رحلة العودة حاملا عزيزا وقفصــا كبيرا فارغا الا من كتكوتين يحتضنهما بيديه •

كان يفكر فى « تونة » التى لحظة أن رآها صوصــو قلبه ، كذا قلبها ، ولحظة أن نظرها نزل عن حماره وفتح قفصه

ليخرج أحسن عشر كتاكيت بينهم ديك شركسى أخذته فى كفها الصغيرة الطرية وقالت : أسميه عزيز وأرصـــده باسمك وأحبه .
فاطمأن قلبه وصار يغنى على الرباب الذى اشتراه خصيصا لها أغنيـــة تونة الجميلة التى أحبت عزيز بائـــع الكتاكيت وعزيز أحبها ، وقال لها : عندى كتكوته شقراء جميلة مثلك هى الآن تونة الحبيبة ولن أبيعها بكنوز الأرض ، وقال أ ضع القرش فوق القرش وربنا يقرب البعيد ، وفى غدوه ورواحه صار ينشد لتونة على الرباب أغان تصوصو لها الكتاكيت ، وقلبه يصوصو كلما رأى تونة التى لحظـــة تراه تخرج ديكه الشركسى وتناديه :
أحبـــك يا عزيز عينى ، وتقربه من شفتيها الجمرتين وتحرقـــه بأنفاسها المعطرة بزهر النعناع ، فيرفرف عزيز بجناحيه الزغب وينقر شفتيها بمنقاره فتضحك وتقول : يا شقى ، ثم تخبئه فى نهر صدرها بفرح .

لكن عزيز رأى ذات يوم ، هو ما سمع ، لكنه رأى بعينيه فلم يصدق ما رآه ، وحاول الاقتراب فمنعه الأهـــل واللمـــة والزوج القادم من بلاد بعيدة سمع عنها لكنه ما نظرها قط ،
كانت تسير خلف جلباب أبيض نظيف رأى ضوءه من شـــدة ألقه ، وشم رائحة زهر النعناع ــ رائحتها ــ من الجلبـــاب الأبيض ، وكانت هى فى المنتصف وحولها الأهل والأصـــدقاء يودعونها ، أشارت له بذراعها خفية فصهلت أســـاور معصمها

الأبيض المدملك ، وفى الزحمة لم يشعر بوجوده أحد ، سحب حماره خلفه حين كانت تهم بركوب العربة ، وشعر بقلبه ينتفض ويصوصو ، وسمع صوصوة الكتاكيت بشدة وبطريقة بدت له غريبة ومحزنة ولم تكف طوال الليل ، وأخرج تونة من قفصها وصار يتأملها ، وفاحت رائحة زهر النعناع فكانت رائحة رجل قادم من بلاد بعيدة ، وبدأ يبكى حتى غفلت عيناه .

حين قام فى الصباح كانت عينه الشمال ترف ، وأخذ يبحث عن تونة فما وجدها ، قال لنفسه : صباح حزين . وأخرج ربابته وغنى : طول عمرى عايش لوحدى . وأحس بقلق لم يعشه من قبل ، وتذكر قولا رددته أمه : الدنيا يانن عين أمك كما السواقى القلابة . هز رأسه وتمتم : صدقت والله يا أم .

كان قد ترك العمار وتوغل فى طريق لم يألفها من قبل راكبا فوق ظهر حمار أعرج هو صاحبه وصديقه وآخر أحبته ، وهبت رائحة نفاذة قوية فعرف أن اليوم يوم خميس ، وأن الساعة ساعة قيالة ، وان الناس تنام الآن فى بيوتها الاه ، وأن الشمس فى عزها ، وأن طريقه ليس به صريخ ابن يومين ، والشىء الذى لم يعرفه ، أنه الآن فوق بئر الساقية التى يقع فيها بعد لحظات ، معه من الأموات : حمار عجوز أعرج ، وكتكوتان أحدهما ديك شركسى .

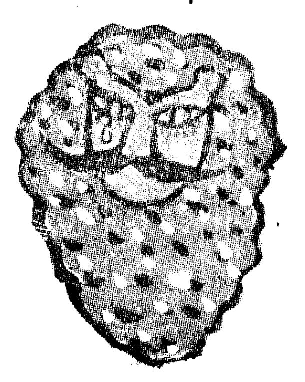
حدث الراوى فقال :

وما مر عليكم من ســير ان هى الا قطرة فى بحر محيط اسمه الدنيا ، أولها عياط وآخرها عياط ، وما بين الأول والآخر نكد على فرقة أحبة ، فسبحان الحى الذى لا يموت صاحب الملك والملكوت .

أحس الراوى شيئا لم يرد الافصاح عنه ، شيئا يعرفه معرفة يقينية بدأ يدب فى جسده ، عرفه من ارتعاشة القوس فى يده ، وعرفه من تهدج صوته وخفوته ، من سرحة روحه وهيامها فى دنيا الراحلين ، وهو قد نذر نفسه لموتاه ، تلاوة ما تيسر من سيرهم ، وهــذا عهد أخذه على نفسه ولابد من تمه ، وروادته نفسه : هل يحكى قصته بالمرة قبل أن تفوت الفرصــة ، فمن أين له براو أحوذى يأتى من بعده ، قابضا على حكاياته مالكا لناصية القول ، يروى سيرته ، سيرة الراوى الذى رحل كل أحبته فنذر نفسه للموت ، يحيا ويتنفس عليه ، يسلى موتاه فى غربتهم ، يسمعهم ما لم تسمعه أذنهم من قبل ، وحدث نفسه :

قصصت على الناس أحسن القصص ، أخلصت فى الصنعة فجودت وحذقت الرواية ، ولابد أنهم أحياء الآن ، وما بدأته لابد من اتمامه ، أما أنا ، فلى رب اسمه الكريم •

وقف الراوى وقد أحكم القوس فى يده التى بانت عراقيبها ، ووضع ربابته فى موضعها ، وبدت أنفاسه لاهثة متلاحقة ، وداهمه أحساس الذى يجود بآخر ما عنده ، فقد حكى فى سرعة ، عن وجوه كثيرة عرفها فى طفولته وماتت ، ووجوه صاحبته شابا وماتت ، ووجوه أدركت شيخوخته وفارقت ، ثم بدأ يبطىء قليلا وكأنه أدرك سرعته ، مفصلا فى تأن ، ومجودا فى الأداء ، وتوقف تنفة من الزمن لقط فيها نفسه ، وشد أوتار الربابة ، وشمع القوس فشد بعد ارخاء ، وبدأ بالقول ــ أنا وأتم نصلى على طه الرسول :



وجـوه للمـوت

« والقبر قال له انزل ولا تخافشى ، خايف انزلك
يا قبر ما اطلعشى » .

(عدودة مصرية)

ولد ليمــوت

وسعيد فرجانى الذى تصور فى لحظة أن يضحك على ملائكة موته فعاندوه وانقلبوا ضده • ملك دنياه طولا وعرضا وحين تركنا نحن أولاد المدارس قائلا لنا : سوف أترك المدارس لكم أما أنا فسوف أكسب بيــدى هاتين ولا أنتظر المصروف كما تفعلون• فأصبح كسيبا يفنجر على شلته الجديدة ، وعرفنا أنه ليس منا بعد الآن •

هو بدأ موته لما صفر لى بفمه صفيرا طويلا أعرفه ، فطلعت سطح بيتنا ، ووجدته واقفا أمامى على ســطح بيتهم ، أشار لى بكف يده فعبرت السـور الفاصل بين

البيتين ورحت اليه ، كان متوترا زائغ النظرات ، أمسكنى من ذراعى وقال تعالى شوف ، قادنى ناحية المنور ، نظرت اليه متسائلا فوضع اصبعه على فمه وهمس : هس ، بص تحت ، كنا بالليل ، وكان نور أحد الحمامات مضاء ، وكان الشباك الزجاج مفتوحا نصف فتحة ، ورأينا توحة ابنة الجيران تستحم ، فقلت له مشوحا بيدى :

يا أخى عيب على شيختك . ثم اننى تركته ونزلت .

ولكن المرأة التى أحبها هى سبب موته ، بيتها يقع خلف بيت سعيد ، وكان يترك عمله ويصعد الى سطح بيته فى المساء ، ويقف تحت شباكها المطل على السطح ، ويصفر بفمه صفيرا طويلا متناغما فنرى الشباك وقد انفتح، ونراها وقد اتكأت بكوعها على حافته فى قميصها الداخلى الأحمر فيتوهج بياضها بحمرة القميص النايلون، وفى غفلة منها يشير الينا فى الخفاء بابتسامة مزهوة وهو يواعدها على لقاء ، وكنا نقول له حين نراه نازلا الى الحارة فى سخرية: عاملين فيها رميو وجولييت . فيرد ضاحكا: اسكتوا ياتلامذه ، الواحد منكم شنبه فى وشه ولسه بياخد مصروفه من أمه . فنلتف حوله ونحايله ليحكى

لنا عن مغامراته معها ، وكان هو يحب ذلك ، فتتوهج عينـاه ، ويخرج الكلام من فمه سريعا ومحملا برزاز لعابه حتى نظن انه لن ينتهى فى سنته ، وكنا نراه بعيون أولاد المدارس كبيرا قادرا على فعل عجائب لا نقدر على فعلها فيدخن السجائر فى العلن ، ويشرب الحشيش والبيرة ولا يخاف ان يراه أحد ، ودائما ما كنا نراه خارجا من بيته ومشوحا بيده لاعنا البيت ومن فيه ومهددا أباه بتركه ، حتى ليلة انتحاره ، لمـا ضبطه يتحدث معها فوق السطح ، فشتم المرأة وهددها بفضحها عند زوجها وجعل سيرتها على كل لسان ، ثم أنه تحول الى سـعيد الذى وقف ساكنا مذهولا مما حدث فشتمه وهدده بطرده من بيته اذا لم يرجع عن هذه المرأة ، لحظتها قال له : تحب أولع فى نفسى عشـان تستريح • فرد عليه : يا ريت يا أخى نستريح منك ومن عارك • فجرى الى الشقة ، واتجه الى المطبخ ، وفى ظنه انه مجرد تهديد، وانه سيجرى وراءه يمنعه ، وسكب الجـاز على رأسـه ، وانتظر ان يأتى اليه ليمنعه فلم يفعل ، وأشعل عود كبريت ، كانت أمه بالداخل فخرجت على صراخه واتجهت اليه ، كذلك أخوه الصغير ، وبين غمضـة عين وانتباهتها ، خرج من حارتنا ثلاثة توابيت تحمل ثلاث جثث متفحمة سعيد ، وأمه وأخوه الصـغير •

أبــن مــوت

وأحمــد عبد القادر الذى دخل ذات مساء ســينما « مرمر » حيث شاهد ثلاثة أفلام كان آخرها « الرأس الكبير » فخرج يزعق ويشلت بالشمال واليمين وكل من قابله فى طريقــه لاعبه كاراتيه مقلدا « بروس لى » ، هو نفسه الذى دهســته العربة « كارتر » فى اليوم التالى لمــا خرج من بيته ذاهبــا الى مدرسة التجــارة يحمل كتابه بيمينه ، فساوته بالأســفلت وعدم شبابه •

كأن خمس عشر ســنة فقط كانت تكفى ليصبح رجــلا طويلا عريضا ، ذا وجنتين متوردتين دوما وشعرا أصفر ناعمــا مفروقا من منتصفه ، وبشرة بيضاء كاللبن الحليب ، وافعال ما كان يقدر على فعلها غيره ، علمنــا كيف نمســك النبل فى أيدينا وكيف نصطاد العصافير فكان يخرج بنا الى الزراعة وكنا نرجع وما اصطدنا شيئا ، الا هو فيصطاد العصافير ، والكنارى ، وأبو فصاد ، وحتى الوطاويط ما كان يتركها فى حالها ، ولأنه

كان ماهرا فى صنع الطائرات الورق ، ولعب البلى ، والجعران ، والكازوز ، ونقى المشمش ، وأمساكيات شهر رمضان ، فقد أصبح زعيما لعصابتنا ، فخافه الجميع وخافته عيال الشوارع المجاورة لشارعنا ، وعلى حسه ما كنا نخاف أحدا ، فلما مات ، ضاعت هيبتنا ، وتفرقت عصابتنا ، ودخل شارعنا كل من هب ودب •

المشـــهد الأخـــير

كل من شاهد ما حدث قال كأنه ـــ سبحان الله ـــ شهد جنازته بنفسه ، ففى لحظة انقلب المشهد كما قدر له أن يكون منذ الأزل ، فالجنازة كانت سائرة محمولة على أعناق الرجـــال حيث يودعونها مستقرها الأخير ، والنســـوة الندابات باشرن عملهن فاشعلنها نارا حاميـــة كادت تحرق الجميع ، ونجـــاب القرية كان يقوم بواجبه خير قيام ، جمع مشايخ البلد وكون حلقة سارت أمام النعش يتمايلون على أنغام تراتيل القرآن ، والطريق الزراعى توقف من كثرة الخلق ، والعربات توقفت وركنت على جانبى الطريق ، هكذا كانت الجنـــازة تسير فى طريقهـــا الى الترب الواقعة أول البلد ، العربات الداخلة الى القرية كان عليها أن تمر بدائرة كاملة من الانحناءات قبل أن تعتدل فى طريقها فترى القرية أمامها ، وكانت عربة النقل الكبيرة الآتية من القاهرة والمحملة بأشـــولة القطن تقترب الآن جارة مقطورتها ، مرت بالدائرة فى طريقها الى أول البلد ، وعلى الجهـــة اليمنى من الطريق ، كانت عربة نصف نقل فارغة تقف ساكنة لحين انتهاء الجنازة ، وفوقها وقف « التباع » رافعا اصبعه ناطقا بالشهادتين

ومحملقا فى الجنازة ، ودخلت عربة النقل البلد ، ورأى السائق نهر البشر أمامه ، داس على الفرامل فاختـل توازن العربـة وتأرجحت المقطورة يمينا ويسارا ، وانحرفت العربة يمينا متفادية الجنازة ، واصطدمت بقوة فى عربة نصف النقل ، وطار التباع محلقا فى الهواء باتجاه الجنازة ، وارتطم بالأسفلت محدثا فرقعة وجرى الجميع تاركين النعش على أسـفلت الطريق ، ولكنهم أسرعوا عائدين حين توقفت العربة ، وجدوا بجانب النعش جثة مفرودة الذراعين والرجلين وقد خرجت احشاوءها والتصقت بالأسفلت ، لم يتعرفوا عليه أول الأمر ، لكن البعض رآه واقفا على عربته حين مرت الجنازة أمامه ، وسارت الجنازة فى طريقها بعد ان غطوا جثة الغريب بغطاء العربة ، وكان الجميع يعرفون الآن أنه رفع اصبعه ناطقا بالشـهادتين وأنه شاهد جنـازته بنفسـه •

ما أن انتهى حتى وقع القوس من يده ، وانتثرت ربابته فوقعت بعيدة عنه ، وخذلته قدماه فوقع من طوله ، قال : هى النهاية لا ريب ، وليس من المكتوب مهروب ، جلس وعـدل نفسه واستند بظهره الى حائط ، بحث عن عدته ، جمعها وكومها بين يديه ، كانت نظراته زائغة ، وأحس برعشة تتملكه ، كان جسده متداعيا ، لكن ذهنه مازال حاضرا حضـورا كاملا ، وعلى وشـه بدت أمارات صراع جوانى كان محتدما ، ونطق لسانه دون تردد : نعم أخافه . وظل يرددها عدة مرات دون وعى منه ، كانت اجابة لسؤال لم يطرح بعد ، وهو الآن يزن فى نفسه :

هل تخـاف الموت ؟ يا من نذرت نفسـك لموتاك ، وغنيت طوالّ المدة بالموت ، وها هو يجيب على السؤال الصعب : نعم أنا أخافه ، وأنا أكرهه ، بل كنت أحايله ، وكنت أتحصـن ضده بمحـاورته ، بفض كل أسراره ، وفتح كل مغاليقـه ، لازالة غصته ، وتخفيف وطأته وهى شديدة ، وقال : ولم يفرغ حردانى

بعد ، فما زالت به سيرة أحدهم ، فصـــل من فصـــول رواية موتاى ، به يكتمل النذر ، وبه أكون قد بلغت ، فهل أقدر ؟ اللهم أعنى ــ واذا مد الله فى الأجــل رويت سيرتى ان شاء الله ، اعتدل فى جلسته مرتكنا بظهره للحـــائط ، فاردا ساقيه أمامه تناول القوس بيد مرتعشة ، وبالأخرى ربابته ، وللمرة الأولى يشعر بثقل حملها ، ومن شفتيه طلع صـــوت عزاء : رحمة الله عليه ، بموته اكتملت الدائرة وكل انسان لابد أن يبلغ عدمه :

مـــوت النجـــاب

« باب اللحود مش زى باب البيت كتفك عريض وازاى خشيت » .

(عدودة مصرية)

موت النجاب

•

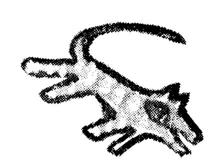
حتى عبد الرسول النجاب رأى بنفسه رؤيا موته ، ففى الفجر قام من نومه مفزوعا ، اشعل لمبة الجاز وجلس على الدكة الموضوعة فى ركن عشته الخوص ، والتى كان ينام عليها ، وضع رأسه بين رجليه بعض الوقت ، وأحس بخيوط الفجر الأولى فقام توضأ وصلى ركعتى السنة اتبعهما بركعتى الفرض ، وحين انتهى ، بحث عن عصاته التى يتوكأ عليها وطبلته الصغيرة المبططة ، وقطعة الجلد التى ينقر بها على الطبلة ، خرج وأغلق الباب وراءه ، وكعادته كل يوم رفع يده الى جبهته جاهرا بالسلام : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون • ثم سار بين المقابر المرصوصة بشواهدها القصيرة ، متوقفا أمام كل مقبرة قارئا الفاتحة على أهلها ذاكرا اسماء ساكنيها ، فكر : اليوم تكون من أهل الترب يا واد يا عبد الرسول ، سنين طويلة مرت هنا وانت لا تدرى ، لا عيل ولا تيل ، لا أهل ولا صحبة ولا يحزنون ، كل ما تفعله أن تزعق كما الغراب النوحى حتى تشاءمت الناس منك ، فهربت

الى هنا ، حيث الصمت سيد كل شيء ، لا أحد يسأل الا اذا حدثت مصيبة ، ساعتهـا ، يجيئون اليك ، يوقظونك فى أية لحظة ، فتأخذ عدتك وترحل ، تجوب القرى والبـلاد ، تنشر الخبر فى كل مكان ، فيأتى الجميع لوداع الفقيد ، وترجع انت الى مقابرك فى صمت ، ياه ، زمن غريب .

لمـا انتهى من مروره اليومى ، اتجه الى البلد وهو يجر رجليه جرا ، وفى القلب كانت رجفة ، كيف يخبر أهل البلد ، وبأى طريقـة يخبرهم ؟ هـل يصفونـه بالجنون ، أم انهم سيصـدقونه ؟ هو الذى لم يكذب فى حياته قط ، فى الزمن الفائت ، ما كان يخرج من الترب الا لسبب ، وكان ظهوره يعنى سـماع خبر موت أحـد ، اليوم سـوف يخرج للمرة الأخير ، واليوم هو الوحيد العـارف بمن سينعيه ، لن يخبر أحدا ، بما رآه فى منامه ، هو على يقين مما رآه ، فالرؤيا كانت واضحة ، وهى تعنيه هو دون غيره ، وحدث نفسه : طبـاخ السم يذوقه . وأصبح الآن وسط البيوت ، وكانت الشـمس قد طلعت الآن فبانت الحوارى الطينية الضيقة والمنداة ببخار الصبح ، وبدأ الفلاحـون يخرجون بالبهـائم فى طريقهم الى الغيطان ، حين رأوه واقفا طويلا بجلبابه المقطع وشعره الأبيض

المنكوش ولحيته التى تغطى رقبته ، كان منظره مهيبا ، ووقف الجميع ينتظرون خبر موت أحد أهل البلد ، وكان واقفا لا يعرف من أين يبدأ ، ولم تدم حالة تردده ، فقد وضع الطبلة فى يده ، وشبك عصاه فى ذراعه ، وأمسك الجلدة بين أصابعه ، وبدأ ينقر نقرته المميزة التى يعرفونها ، والتى تبدأ بنقرة واحدة، ثم أربع نقرات متتالية هكذا : تم •• تتم تم تم ، وبدا صوته ضعيفا ومبحوحا ، وأصبح الآن عاليا صاخبا : البقاء لله وحده ، يا أهل البلد ، انا لله وانا أليه راجعون ، عبد الرسول النجاب يموت اليوم ، الحاضر يعلم الغائب ، ولا أحد يمشى لكم فى مكروه • وكما توقع ، فقد التفوا حوله أول الأمر ، ثم ضحكوا وتفرقوا ، وحسبوه مجنونا ، لكنه لم يتوقف ، مر على بيوت البلد كلها بيتا بيتا ، وبدأ العيال يلتفون حوله ويمشون خلفه ، يصفقون ويشيرون اليه : المجنون أهو ، وكثيرا ما أوقفه الناس ليسألونه : مالك يا عم عبد الرسول بعد الشر عنك ، لكنه ما كان يجيب ، فقط يضرب على طبلته زاعقا وكأنه لا يرى أحدا أمامه ، حتى انتهى من جولته فاستدار عائدا ، وفكر أن أحدا فى البلد كلها لا يصلح للقيام بما كان يقوم به ، وان عليهم أن يبحثوا منذ الآن ، وواجهته مشكلة لم يفكر فيها

من قبل ، اين سيدفنونه ، الترب تملكها عائلات البلد ، وكل عائلة لها تربها ، وهو غريب وليس له عائلة ، ولا توجد ترب للغرباء ، وهز رأسه ، سيتصرفون على أية حال ، وصل الآن الى المقابر حيث يسكن ، فتح باب العشة وأسنده بحجر ، وأمام الباب حفر حفرة صغيرة ، لف الطبلة والجلدة فى خرقة قديمة ووضعها فى الحفرة ، ردمها ودب عليها بكف يده حتى تساوت بالأرض ، جلس على باب العشة وفرد رجليه أمامه ، واستند بظهره لحائط البوص ، وبجانبه وضع عصاه ، وانتظر ، وأمامه كانت ترتفع شواهد القبور ، لامعة فى شمس منتصف النهار •



قـال الراوى :

آآآااااااااااه ، ووضع يده الملحومة بالقوس على صدره ، وأحس روحه تنسحب من جسده انسحابا حثيثا ، وشحب وجهه وغامت عينـاه ، وظللت شـفتيه بسمة ، فها هو النذر قد وفى ، والرواية اكتملت عناصرها ، ولم يعد فى عنقه دين لأحد ، ولكن ما زالت هنـاك مسألة : هل يستطيع روى سيرته ، لقد غافل سامعيه وروى نتفا ، لكنها لم تكتمل بعد ، والعمر ولى وبانت أواخره ، ودمعت عيناه ، هو راوى أخبار الموتى والميتين يعجز عن رواية سيرته ، أن يسمعها للمرة الأخيرة من فمه ، قـال : سوف أبدأ طالمـا فى الجسـد سره الآلهى ، وما قـدره الله سوف يكون .

اعتدل فى جلسته ، رفع يده بالقوس لكنه سقط ، أمسكه مرة ثانية ، وبيد كلت مرره على الأوتار ، وعلى لحن الرباب حرك لسانه :

أنا أول ما نبدى القول نصلى على النبى .... نبى عربى نوره ....

● **صـدر للمـؤلف :**

١ ـ **حكايات الديب رمـاح** ـ قصص قصـيرة ـ الهيئـة المصرية العامة للكتاب .

٢ ـ **حـرب اطاليـا** ـ قصص قصـيرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨٩ .

● **تحـت الطبـع :**

١ ـ **كتاب الفتوح الكبرى المعروف بحرب بلاد نمنم** ـ قصص قصيرة .

٢ ـ **سيرة امينة مرشد** ـ روايـة .

٣ ـ **الحكايـة الشعبيـة** ـ دراسة ومختارات .

٤ ـ **قمر الأقمـار** ـ روايـة .

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٢/٧١٤٧

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3114 — 8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب